

رحلتي إلى مكّة المكرّمة

في عام 1894م

تأليف: جول جرڤيه كورتيلمون

ترجمة: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

رحلتي إلى مكّة المكرّمة

في عام 1894

للرحّالة الفرنسي

جول جرفيه كورتيلمون

ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

DS244.5 .G47 2013

Gervais-Courtellement, Jules, 1863-1931

رحلتي إلى مكة المكرمة في عام 1894/ للرحالة الفرنسي: جول جرفيه كورتيلمون؛ ترجمة وتعليق: أحمد إيبش. ط. 1 .- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.

ص. ؛ سم.- (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب : Mon voyage à La Mecque

تدمك: 8 - 715 - 01 - 9948 - 978

1. مكة المكرمة (السعودية) -- وصف ورحلات.

2. السعودية-- تاريخ. أ. إيبش، أحمد. ب. السلسلة. ج. العنوان.





الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب. 2380

publication@tcaabdhabi.ae
www.adach.ae

رحلتي إلى مكّة المكرّمة

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التّاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشـرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسـف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيليوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبّيين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة

هذا الكتاب

رحّالتنا في هذا الكتاب «جول جرفيه كورتيلّمون» Jules Gervais-Courtellemont مصوّر فوتوغرافي فرنسي كان مقيماً في الجزائر بأواخر القرن التّاسع عشر، وكان واحداً من الفرنسيين الذين هاموا بالمشرق وأحبّوا حياته الرّومانسية العابقة بصدق المشاعر وأصالة الأخلاق والقيم الإنسانية. أثاره قيام القنصل الفرنسي «ليون روش» Léon Roche في عام 1841 برحلة حج من الجزائر إلى مكّة المكرّمة، فقرّر في عام 1894 القيام برحلة مماثلة على خُطاه، ليختبر بنفسه هذه التجربة الرّوحيّة الفريدة. وسافر بجواز سفر يحمل اسم: عبد الله بن البشير.

ولد جول جرفيه Jules Gervais في مدينة «آفون» Avon بالقرب من باريس في الأول من يوليو عام 1863، وهو الولد الوحيد للويس فيكتور جرفيه، كان أبوه ميسور الحال وكانت أمّه ربّة بيت وتعزف على البيانو، وتعطي دروساً في الموسيقى. وكان لهذه العائلة صديق اسمه لويس ألفونس كورتيملون، ذو دخل مناسب أيضاً، ويعمل ضابطاً في الفيلق الأجنبي، وله ابن يعمل في سلك الجندية الفرنسية. ولمّا مات والد جول سنة 1868 تزوّج ابن صديق الأسرة أرملة جرفيه، والدة جول[1].

غادرت الأسرة كلّها للعيش في الجزائر سنة 1874، فاستقرّت في «غلزان»، وهي منطقة صحراوية قاحلة، تقع بالقرب من الجزائر العاصمة، وكانت فرنسا تطبّق آنذاك

(1) انظر دراسة محمّد أحمد الحناشي عن كورتيلمون ورحلته، دار التّراث الرّياض 2002، ص 9-16.

سياسة إعمار الأرض في شمال أفريقيا بالمستوطنين الفرنسيين، لاستمرار احتلالها والسّيطرة عليها.

بعد هذه الرّحلة تقاعد زوج أم جول من السّلك العسكري ليستقرّ نهائياً في هذه الأرض، وقد بلغ رتبة ضابط كبير. بعد ذلك حلّت بالجزائر كارثة بيئية فقدت الأسرة إثرها كلّ ما كانت تملكه في المزرعة التي كانت تديرها هناك، ولم يبقَ مع العم كورتيلمون إلا مبلغ نقدي يقدّر بسبعين ألف فرنك. انتقلت الأسرة كلّها بعد هذه الكارثة للعيش في منطقة «مينة»، حيث استطاعت الحصول على قطعة أرض أخرى صالحة للزّراعة. ولمّا وجدت الأسرة نفسها معزولة في هذه المنطقة بدأت الأم تتردّد إلى بعض نساء القرية المجاورة، فحلّت الألفة مع الجيران وأصبحوا جميعاً أصدقاء.

اشترى زوج أمّ جول للفتى بندقية صيد، فطفق يجوب الغابات برفقة مجموعة من شباب القرية بحثاً عن الصّيد، وبذلك تعوّد منذ صباه على التّقشّف. ومرّة أخرى حلّت بالأسرة كارثة زراعية جديدة، فقدت إثرها كل شيء، ولم يبقَ للضّابط القديم إلا راتب التّقاعد، فغادرت الأسرة المزرعة وكان عمر جول آنذاك 14 سنة، فتُرك فيها وحده يواجه مصيره بلا مُعين أو مال إلا من مساعدة أهل القرية.

كانت علاقة جول بزوج أمّه قوية، لدرجة أنه قرّر أن يحتفظ باسمه، فصار يوقّع باسم جرڤيه - كورتيلمون. وأحياناً كثيرة يوقّع بكورتيلمون فقط، كما أنّ زوجته لاحقاً أصبحت تعرف باسم مدام كورتيلمون. مات زوج أمّه سنة 1890 وكان عمره حينذاك سبعاً وعشرين سنة، فتولّى بنفسه البحث عن وسيلة للعيش له ولأمّه. ولأنّه كان مصوّراً بارعاً فقد افتتح في أحد شوارع الجزائر العاصمة معرضاً صغيراً لبيع صور «النّقش الضّوئي». ثم انتقل بعد سنوات إلى الجزائر العاصمة لدراسة التّلغراف، فتلقّى فيه تدريباً جيداً وكان يقرأ عنه كثيراً، وتابع الدّروس الليلية إلى جانب صديقه جول لوميتر.

كان شغوفاً بحبّ الاستطلاع، فشرع في الاهتمام بالإسلام، هذا الدّين الذي يحيط به من كل جهة في حياته منذ وصوله إلى الجزائر. وكان فيها آنذاك جمعية كبيرة هي «كونكورديا» تضمّ الأدباء والمثقّفين، وأغلب أعضائها من علية القوم في الجزائر،

يغـدو كثير منهـم من كبار الصّحافيـين في الجزائر وباريـس، ومن ممارسـي المعاملات التّجاريـة الكبرى. عقد جول صداقات مع عدد من أعضاء هذه الجمعية، وعرف كيف يسـتغلّ هذه الصّداقات.

وكان كورتيلمـون محبّاً للتّرحال، فسـافر إلى مناطق مختلفة مـن الجزائر والقاهرة والقـدس ودمشـق، وعـاد بزاد مـن الصّور التي نشـرها في مجلّة أسّـسـها تحت اسـم: *l'Algérie Pittoresque et Artistique*، أو كان يعـرض صـوره للبيـع في معرضه في شارع «تروا كولور» بمدينة الجزائر العاصمة. وقد تزوّج من ابنة أحد أصدقائه «هيلين» (إيليـن باللفظ الفرنسـي) قبـل رحلته إلـى مكّة المكرمة وأنجب منهـا بعد عودته ولداً سمَّاه عبد اللّه.

وبسـبب ما كان يسـمعه من الحجّاج القادمين من «مكّـة المكرّمة» أحبّ أن يذهب إليها ويرى بنفسـه ويصوّر هذه المدينة المقدّسـة. يقول جول: «لقد رغبتُ بكشف سرّ هـذه المدينة المقدَّسـة ليـس لإتمام رحلة كبقيـة الرّحلات، وإنما الدّافـع هو أن أكمل أبحاثي حول الشّرق المعاصر. هذا الشّرق المسلم الذي أخذتُ على عاتقي أمر وصفه مجتازاً إياه بكلّ الاتجاهات. لقد أمضيتُ شبابي فيه وأنا أحبّه كما يحبّه كل من عرفه».

وعن حبّه للإسـلام وأهله يقول: «أما بالنّسـبة لي فأنا أحب الشّـرق بسمائه الزّرقاء، وأحب الإسـلام ببسـاطته، وأعجب بمعتقداته الرّاسـخة». تعرّف جول إلى رحّالة من الجزائر «الحاج أكلي» شـوّقه إلى الذّهاب إلى مكّة، فعرض فكرته على حاكم الجزائر الفرنسـي «كامبـون» Cambon فأبدى اهتمامـاً بالأمر خصوصاً أنّ الحج يشـكّل أحد اهتماماته، فقام بإعطائه جواز سـفر باسـم «عبد الله بن البشـير»، ولكن على مسؤوليته الخاصة.

وهكـذا، انطلـق في هذه الرّحلة عـام 1894 وكان له من العمر 31 عاماً، وأعلن إسـلامه ومارس شعائر الصلاة والصّيام والحجّ بكل تقى، وتفاعل مع أصدقائه من الجزائريين ومن أهل الحجاز بكل مودّة، وإن كان خشي من الإقرار بإسلامه في كتابه هذا الذي نشر بفرنسـا عام 1896، فادّعى أنه «يحبّ الشرق ويحبّ الإسلام ببساطته ومعتقداته الرّاسخة، دون أن

يكون له الجرأة على اعتناقها». لكن مع ذلك، يبقى الكتاب وثيقة وجدانيّة شفّافة تدلّ على تفاعل إيجابي حميم من مثقف غربي تجاه حضارتنا الإسلاميّة.

* * *

ثم قام جول برحلة إلى إقليم التّيبت (يونّان) في الصّين عام 1902 ونشر وقائع رحلته في كتاب بعنوان «رحلة اليونّان» عام 1904 واستغرقت تلك الرحلة أكثر من سنة. وبعد عودته ذهب إلى باريس، وفتح معرضاً لبيع الصّور الملوّنة بطريقة الأوتوكروم autochrome التي كانت من أحدث تقنيات ذلك العصر (1907) وبرع بها جول. وكان يلقي محاضرات عن رحلته وخاصّة رحلته إلى مكّة المكرّمة ويعرض صور تلك الرّحلات. سافر إلى تركية مرةً بمفرده والأخرى مع زوجته عام 1908 ثم معاً مرةً أخرى عام 1910.

وعايش كورتيلمون إنشاء سكة حديد دمشق - المدينة المنوّرة. وقد اشتغل في هذه السكة 55 مهندساً تركياً، بالإضافة إلى مهندسين غربيين أحدهما فرنسي والآخر ألماني (مايسنر H. A. Meissner)، كما تمّت الاستعانة بنحو سبعة آلاف جندي من الجيش التّركي، وقد كلّف ذلك المشروع 93 مليون فرنك فرنسي، وبلغ طول السّكة 1320 كلم، وقد دُشّنت مع نهاية فصل صيف سنة 1910. ولمّا كان انتشار وباء الكوليرا خلال رحلة كورتيلمون إلى مكّة المكرّمة عام 1894 قد منعه من زيارة المدينة المنوّرة للصّلاة في مسجد الرّسول ﷺ والتّشرّف بالسّلام عليه، فقد عمل المستحيل للتوجّه على متن القطار إلى المدينة المنوّرة من أجل التقاط الصّور للمسجد النّبوي الشّريف على وجه الخصوص، والمدينة على وجه العموم.

وفي أوائل سبتمبر عام 1910 استقلّ القطار مع أعضاء لجنة تنظيمية كان قد تقرّر إرسالها لحضور حفل تدشين محطة سكّة الحديد بالمدينة المنوّرة. وقد قام بالتقاط صور كثيرة، منها صور للمسجد النّبوي الشّريف، وهي من أقدم الصّور الملونة لهذا المسجد، وتوجد هذه الوثيقة التاريخية في متحف روبير لينين السّينمائي cinémathèque Robert-Lynen في باريس.

وفي عام 1912 سافر كورتيلمون إلى الهند والتقط كثيراً من الصور الملوّنة. كما التقط الكثير من الصّور التّوثيقيّة إبّان الحرب العالميّة الأولى في فرنسا. وكان صهراً للنّاشر شارل لالمان Charles Lallemand وصديقاً للكاتب والرّحّالة الفرنسي الشّهير بيير لوتي Pierre Loti والمصوّر الفوتوغرافي إيميل فريشون Émile Frechon. وكانت وفاته في عام 1931، رحمه الله.

* * *

أول طبعة صدرت لكتابه *Mon Voyage à la Mecque* نشرتها مكتبة هاشيت (تلفظ بالفرنسيّة: آشيت) في باريس عام 1896، وسرعان ما تلتها طبعة ثانية في العام ذاته، نظراً لإقبال القرّاء عليه ولجماليّة صوره التي تعدّ من أوائل ما اطّلع عليه الأوروبيّون من صور لمكّة في ذلك العصر، حتى أنّها أتت بعد فترة غير طويلة ممّا نشره الهولندي كريستيان سنوك هورخرونْيه C. S. Hurgronje (الحاج عبد الغفّار) في كتابه المتميّز: «أطلس الصّور عن مكّة»[1]، الذي صدر في لاهاي عام 1888.

نشر كورتيلمون في كتابه 33 صورة بالإضافة إلى صورة پانوراميّة لمكّة المكرّمة مطويّة بداخل الكتاب، وعدا عن ذلك قام في عام 1897 بنشر مجموعة جديدة من الصّور التي لم ترد في الكتاب، وصدرت في مجلّة «إلّوستراسيون» *L'Illustration* الفرنسيّة الشّهيرة.

لكنّي مع الأسف لم أتمكن من الحصول على طبعة 1896 الأصليّة من كتابه، هذا على الرّغم من أنني عثرت على نسخة منها ومن الطبعة الثّانية في باريس، إلا أنّ ثمنهما كان مرتفعاً جداً. لكنّني حصلت على نسخة رقميّة من المكتبة الوطنيّة في پاريس Bibliothèque Nationale de Paris ونسخة أخرى من مكتبة جامعة ميتشيغان University of Michigan.

---

(1) نُشر بعنوان:

Bilder-Atlas zu Mekka. Haag: Martinus Nijhoff, 1888.

ومن الجدير بالذّكر أنّ هناك طبعة جديدة للرّحلة نُشرت عام 1991 وأصدرتها دار Desclée de Brouwer السّويسريّة من أصل بلجيكي، لكنني لم أتمكن من الحصول عليها أيضاً مع الأسف. فاكتفيتُ لترجمة النّص بالأصلين المذكورين أعلاه، وإن كنت أتمنّى نقل الصّور عن الطبعة الأصليّة الورقيّة، وما كلُّ ما يتمنّى المَرءُ يُدركُهُ.

وأخيراً، فمن الممتع لنا أن نضمّ هذا الكتاب اليوم إلى زمرة الرّحّالين الذين زاروا الحجاز، وكنّا نشرنا منهم رحلة البريطاني جون فراير كين عام 1877، والبريطاني آرثر جون واڤل عام 1908، والألمانيّة دوروتيا فون لينكِه (الكونتيسّة مالمينياتي) عام 1914، وما زالت في جعبتنا أعمال شائقة وفريدة سنقدّمها تباعاً.

ونرجو أن يكون في عملنا هذا ما يفيد ويمتع.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، 29 يناير 2013

د. أحمد إيبش

نقاط حول التّرجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبيّة، يواجه القارئ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التّركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التّركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چِستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچِة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التّركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż والچيكيّة ž.

3- أمّا عقدة التّرجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلف. ومن مظاهر التّشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن بقلم المُسنَد الحِميَري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللسانيّات التّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللّهويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گـ. وفي التّركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشّجريّة، كقولهم: geceler (غِجلار)، Avcı (آوجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غِڤير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربيّة لقوا التّباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسبان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon: «آراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التّعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع الكلمات الأجنبيّة، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرتُجال،

بلجاريا، مجنطيس، إجريق، شيكاجو.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التّركيّة bulgur).

4- ثمّة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أوGervais ، ونظراً لانعدام وجود الكسرة الممالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحّالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أريبه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسنتّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليه، رُنيه، غارنييه، جِرفيه. والأسماء الإسبانيّة: خوسيه، پيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مَدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسباني Condé كوندِه، أو Enrique إنريكِه، والألماني Porsche پورشِه، أو Pritzke پريتسكِه، والهولندي Goeje خويّه، والپولوني Tyskie تيسكِه، والإيطالي Simone سيمونِه، أو Michele ميكيلِه.

5- نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصح بالألمانيّة: مدينة لايپسيك وليس

لايـزغ، زولنڤِن وليـس سـولنجن، كولن وليـس كولونيا، ڤِلهِلم وليـس وليَم، ريخارد وليـس ريتشـارد. ثم نكتب أميرِكا وليس أمْريكا، ڤارشـاڤا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليـس بـراغ، بيجينغ وليـس بِكين. وفـي البرتغاليّة الأصح لفظ: كريشـتيانو، كوشـتا، جوزيه، جُواو. ولكن ثمّة أسماءً رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربيّة مثل: برشلونة (وصوابهـا بالقطلانيّة: بارثيلونا)، دون كيشـوت (وصوابه بالقشـتاليّة: دون كيخوتِه)، باريـز أو باريـس (وصوابه بالفرنسـيّة: پاري)، لويس (لوي)، ملـك القدس جاي أوف لوزِجنان (غي دي لوزينيان)، وليَم الصُّوري (غِيّوم)، برج إيفِل (وصوابه: آيفِل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسيّة يصرّون على لفـظ الكنى الأرمنيّة المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنســي فيـه غُنّة، كما لو كانوا يلفظـون اسـم Evian أو Christian، حتى لم يسـلم من ذلك الاسـم التّركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسـي ابن فرنسـيّ، علماً أنّ ثمّة شـيئاً في التّركيّة يسـمّى: Yumuşak Gc أي الجيم الطريّة، تلفظ كمَدّة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آآج.

6- حـرف H يُكتـب ولا يُنطـق بجميـع اللغـات اللاتينيّـة: الإيطاليّـة والإسـپانيّة والبرتغاليّة والفرنسـيّة والرّومانش والرّومانيّة، ما خـلا حالة في البرتغاليّة بآخر الكلمة مع الألف والواو فيقرأ ياءً، مثل: Covilhã كوڤيلـيا، filha فيـليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيـو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسـم الفرنســي Henri هنـري بل أُنري، وهو بالإيطاليّة إنريكو، والإسپانيّة إنريكِه. وأيضاً ڤيكتور أوغو Victor Hugo وليـس هيجو أو هيغو.

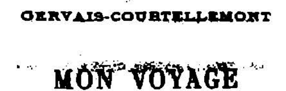
7- وأغـرب الأمثلـة هي الأسـماء العربيّـة التي ترد على ألسـنة المسـلمين من غير العرب، فنسـتوردها بصيـغ لفظيّة مختلفة دون انتباه لأصولها العربيّة، كالاسـم التُّركي ميرڤَـت Mervet الـذي ترنّمـت بـه الأسـماع دون إدراك أنّ أصله: مَروَة. أو اسـم فتاة الشاشـة التّركيّة Tuba الـذي يُكتب لدينا بالعربيّة «توبا» على أنّه اسـم تركي فريد، وما هو إلا اسـم من القرآن الكريم: طوبَى.

وثمّة كنية عريفة في لبنان: جانْبَيْه، يطيب للنّاس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: -Jean Béy بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتّركيّة: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نَفْس. وكذلك اسم قَبَلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتّركيّة: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلّينيّة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سمّيت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أن حرف الشين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأُقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة.

وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش



GERVAIS-COURTELLEMONT

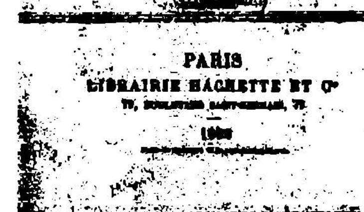
MON VOYAGE

A LA MECQUE

OUVRAGE CONTENANT

TRENTE-QUATRE ILLUSTRATIONS

D'après les photographies de l'Auteur



PARIS

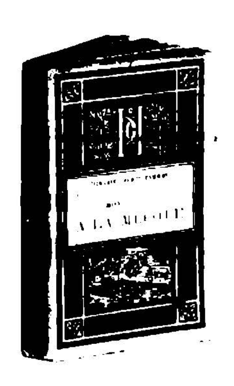
LIBRAIRIE HACHETTE ET Cie

79, BOULEVARD SAINT-GERMAIN, 79

1896

نموذج الطبعة الأصلية القديمة للكتاب

صدرت عن مكتبة هاشيت بباريس عام 1896



نموذج الطبعة الأصلية القديمة للكتاب
صدرت عن مكتبة هاشيت باريس عام 1896



المؤلّف جول جرفيه كورتيلمون عام 1914
(عبد الله بن البشير) 1863-1931



نموذج كاميرا كارتييه التي استخدمها في مكّة



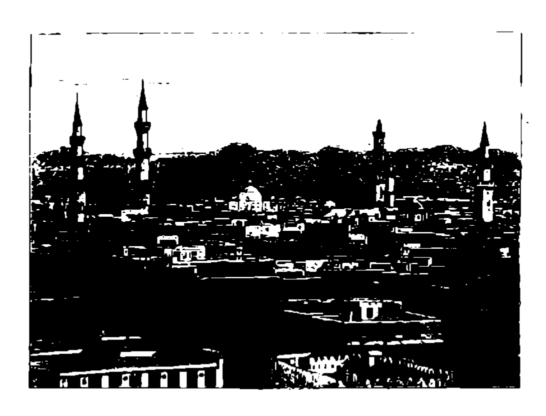
نُقيشة عن صور كورنيلمون عالية الدّقة

مشهد عام للحرم المكّي



نُقيشة عن صور كورتيلمون عالية الدّقة

الصّلاة حول الكعبة المشرّفة

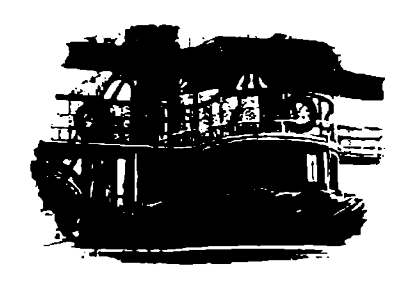


نُقيشة عن صور كورتيلمون عالية الدّقة

مشهد عام للمدينة المنوّرة



نُقيشة عن صور كورنيلمون عالية الدّقة
تمثّل وضوء الحجّاج في عين زُبيدة



ملّاح من البحر الأحمر

رحلتي إلى مكّة

مـا وراء الشّـرق المعروف لـدى الأوربيـين، في منطقـة بعيدة جداً فـي قلب جزيرة العـرب وبيـن الصّحاري الشّاسـعة والغامضـة المحيطة بهـا، توجد مدينة المسـلمين المقدّسـة «مكّة المكرّمة».

تختبىء مكّة في وسـط وادٍ غير مأهول، مُكتَنفة بين سلسلتي جبال شديدة الانحدار وقاحلة، وكأنّ الطّبيعة متوافقة مع الدّين الإسـلامي لإخفاء أسراره المحفوظة بحرص شديد عن أعين المشركين.

لقد رغبتُ بكشـف سـرّ هذه المدينة المقدّسـة ليس لإتمام رحلـة كبقية الرّحلات، وإنمـا الدّافـع هو أن أكمل أبحاثي حول الشّـرق المعاصر. هذا الشّـرق المسـلم الذي أخذتُ على عاتقي أمر وصفه مجتازاً إياه بكلّ الاتجاهات. لقد أمضيتُ شـبابي فيه وأنا أحبه كما يحبه كل من عرفه.

إنّ جميع اللغات والأديان وأسـمى أجناس البشر قد انطلقت من هذا الشّرق العظيم،

فهو جديرٌ بأن يكون مهد الإنسانية جمعاء.

يؤثّر الشّرق بشكل واضح على خيالاتنا. فمثلاً أي إنسان عند انقضاء حياته المهنية أو في المساء عند عودته من يوم صاخب، يرغب في الرّجوع بالذّاكرة إلى أيام الطّفولة، كما ويبدي فرحة كبيرة لدى رؤيته بيت العائلة الذي تربّى فيه.

هذه هي طبيعتنا، ورثناها من آبائنا، فحالما نستطيع فعل ذلك نهرب من أعبائنا الثّقيلة أو من خياراتنا غير الأكيدة، لنعود بذاكرتنا إلى مسقط رأسنا الأسطوري.

* * *

بدء الرّحلة

إنّ مدينة بابيلون Babylone مدينة ضخمة يجتازها نهر ويحيط بها سور مذهل تعلوه قلاع ضخمة. وها هي ذي بابل Babel الجسورة ونينوى Ninive وطيبة Thèbes ذات المئة باب وممفيس Memphis وصُور Tyr وصيدا Sidon، وهاهي ذي القدس الحزينة التي تحافظ على روعتها وبؤسها. إنّ أيَّ إنسان وإن لم يكن يعرف هذه المدن يرتجف قلبه عند ذكر تاريخها مثل سيزوستريس Sésostris ونبوخذ نصر Nabuchodonosr والسّيد المسيح وكيف صُلب على جبل الجُلجُلة Calvaire ومحمّد ﷺ والحملات الصّليبية.

كانت هذه المدن تضجّ بالحياة قديماً إلّا أنها اليوم أكثر المدن جموداً على وجه الأرض، إذ توحي إلينا بأنّ سكانها نائمون وأنهم ينجزون آمالهم اليومية في المنام.

إنهم لا يشبهوننا بشيء، إنّ مدنهم تعيسة بينما مقابرهم مرحة. إنهم يبجّلون كبار السّنّ ويحتقرون المال، وهذا يبقى قائماً ما داموا لم يفسدهم احتكاكهم بمجتمعاتنا.

فمثلاً في خيام البدو نرى اللباس التّقليدي ذاته دون تغير شكله رغم تعاقب الأجيال.

وهذه خيمة الشّيخ إبراهيم الذي ينطلق منها ومعه أولاده وقطيعه قاصداً بلاداً بعيدة جداً، وكأننا نرى يعقوبَ الذي ذهب إلى مصر كي يقبّل يوسف قبل وفاته.

إنّ هؤلاء القوم قد توارثوا منذ عصور مضت عاداتهم وتقاليدهم وحتى زيّهم، ولم يتغيّر فيهم شيء منذ بدء الخليقة.

إنهم بلباسهم الخفيف الملوَّن، بمشيتهم المرنة، بقسائمهم اللطيفة والمتناسقة التي تبدو من خلالها الثّقة بالنّفس، لا يظهرون لنا إلا الاحتقار، فنحن بالنّسبة لهم مجرد همجيين بلباس أسود، ويعتقدون أننا نريد سلبهم ونهبهم أو حتى إهلاكهم.

أما بالنّسبة لي فأنا أحب الشّرق بسمائه الزّرقاء، وأحب الإسلام ببساطته، وأعجب بمعتقداته الرّاسخة دون أن تكون لي الجرأة على اعتناقها.

* * *

لقد أخذتُ على عاتقي في هذا العمل أن أجعل العالم يتعرَّف على هذه البلاد ويحبّها. هذه البلاد المشمسة الغافية، بلاد الرّوعة الوادعة، بلاد السّلام والسّعادة الهادئة.

ولكي يكون وصفي بليغاً، فقد أحببتُ إغناء العمل بصور دقيقة جداً للطّبيعة المحيطة، مُدرجة بأمانة بين صفحات الكتاب وملتقطة بواسطة آلة التّصوير[1].

لهذا جُبتُ بلاد حوض البحر الأبيض المتوسّط المُسلمة وآلة التّصوير بيدي بدءاً من مشاهد طنجة حتى القسطنطينية، وقد استعرضت المواقع والآثار والشّعوب محاولاً إحياء روائع الماضي وطرافة الحاضر بدقّة وأمانة.

تتّضح لي حتى الآن خمسة محاور، لكن يبقي عندي طموح كبير في إنهاء دراستي حول الإسلام المعاصر بشكل إجمالي وذلك عن طريق وصف المدينتين المقدَّستين: مكّة المكرمة والمدينة.

لن أعرض مجموعتي الكاملة إلا إذا أغنيتها بهذه المستندات النّادرة والنّفيسة، وبما

(1) الواقع أنّ صور المؤلف في كتابه جميلة جداً، ولكني مع الأسف لم أتمكن من الحصول على طبعة 1896 الأصليّة، هذا على الرّغم من أنني عثرت على نسخة منها في باريس، إلا أنّ ثمنها كان مرتفعاً جداً. ولذا اضطرتُ إلى نقل الصّور عن نسخة رقميّة من المكتبة الوطنيّة في باريس Bibliothèque Nationale de Paris ونسخة أخرى من مكتبة جامعة ميتشيغان University of Michigan في أميركا.

أنني أعلم صعوبات هذا المشروع فقد قرّرت الإقدام عليه وبجرأة كبيرة بعمر يكون فيه الرّجل بكامل نشاطه.

لقد خطر ببالي هذا المشروع منذ ثلاث سنوات، ولكنني لم أكن لأعلم كيفية إنجازه لو أن الظّروف السّعيدة لم تذلّل لي الصّعاب.

تعرَّفت عام 1890 بشخص غير عادي. ففي صباح أحد الأيام دخل إلى ستوديو التّصوير الخاص بي في شارع (تروا كولور[1] Trois Couleurs) في الجزائر، رجل عليه هيئة القراصنة وجهه ممتلىء بالنّدوب ويحمل على خاصرته سكيناً، وبعد تبادل التّحية طلب مني أن أحميه من خطر كبير.

كان جزائرياً اسمه الحاج «أكلي»[2] Hadj Akli، وهو يسافر كما قال لي منذ عشرين عاماً إلى البلاد البعيدة من البَصرة Bassorah إلى بغداد، ومن القسطنطينية إلى بيروت إلى مكّة والقاهرة وطرابلس وغيرها من المدن. لكن الحجّ إلى مكّة المكرمة كان ممنوعاً هذا العام بالنّسبة للمسلمين في الجزائر، فقد أعلنت بلاد الحجاز انتشار وباء الكوليرا[3] فيها.

لقد كان لسفره إلى مكّة مقصد تجاري أكثر من كونه مقصداً دينياً، وكان قد حصل على جواز سفر إلى دمشق فانضم من هناك إلى القافلة الشّامية الذّاهبة إلى الحج متحايلاً بذلك على القوانين، وعاد إلى الجزائر عن طريق تونس.

إلا أنه تمَّ توقيفه بمجرد وصوله إلى الجزائر بتهمة خرق قوانين الحماية التي وضعتها الحكومة الفرنسية. لكن الضّابط المسؤول عن توقيفه أعطاه الإذن بمقابلتي ليعرض عليّ مشكلته وليسألني المساعدة والحماية.

صُدمت بسبب الظّلم الذي وقع عليه، وقرَّرت أن أكلم من أجله صديقي المحافظ.

---

(1) معنى الاسم بالفرنسيّة: الألوان الثّلاثة، وقد اعتاد الفرنسيون على تسمية علمهم الوطني: le Drapeau tricolore أي راية الألوان الثّلاثيّة، فلعلّ اسم هذا الشّارع مشتقّ منها؟

(2) معنى الاسم بالأمازيغيّة: الخادم أو العبد، وهو يلفظ: أكلي أو أكيلي.

(3) وكان وباء الكوليرا يسمّى آنذاك: الهواء الأصفر.

أثمرت جهودي، فقد تمَّ إطلاق سراحه نظراً إلى الأسباب غير الاعتيادية التي أدَّت إلى الحكم عليه، معتبرين أنه ذهب إلى مكّة للتّجارة ليس إلا. وهو منذ وصوله إلى دمشق حرٌّ بأن يذهب بشكل فردي أو كيفما شاء، بما أنه يملك تصريحاً نظامياً.

إلا أن هناك جزائرياً آخر أقلّ حظاً منه تمَّ توقيفه وحُكم عليه بالسّجن لبضعة أشهر في الإصلاحية العسكرية. والتّبرير هو أنه ذهب أيضاً إلى مكّة رغم القوانين الصّارمة.

لقد ادَّعى أن وصوله إلى جدَّة كان مفاجأة بالنّسبة له، فقد كان يعمل في تحميل الفحم على متن سفينة إنكليزية تابعة لشركة «هولتز» Holtz كانت قد توقفت في الجزائر. وفي وقت الإبحار كان مشغولاً بترتيب عنابر السّفينة ولهذا بقي رغم إرادته على متنها، وتمَّ نقله دون أن يعلم إلى جدَّة، يا إلهي لقد فعل مثل البقيّة وذهب إلى مكّة.

لم يستمع إليه أحد وقد تمَّ توقيفه وحُكم عليه دون أن أتمكن من مساعدته، فأمضى مدّة عقوبته القاسية في إصلاحية «بروافيّة» Berrouaghia.

كثيراً ما كان يراسل صديقي الجزائري ليستجديني كي أتوسَّط له. كان هذا الفتى المسكين الذي يبلغ ثمانية عشر عاماً فقط يكتب ونبرة الألم واضحة في كلامه وهو يتحدّث عن العذاب النّفسي والجسماني الذي يعاني منه. وفي كل مرَّة تصل رسائله يهرع الحاج أكلي إليّ كي أقرأها.

وفي كل مرَّة يتذكر الحاج العذاب الذي نجا منه بفضل تدخُّلي، فيظهر لي اعترافه العميق بالجميل وإخلاصه التّام لي. وزاد هذا التّقدير عندما خرج الشّاب من السّجن في النّهاية بفضل مساعيّ الحثيثة، وأخذ يتحدّث بشكل مباشر مع الحاج «أكلي» عن معاناته في السّجن.

لم يكن الحاج ليتحمّل هذه المعاملة الوحشية، فهو شديد العصبية وعنيف، ولم يكن يبالغ بقوله إنني أنقذت حياته.

* * *

وفي يوم من الأيام أخبرني الحاج بقصّته كاملة. كان قد تربّى في طفولته في مدرسة البحّارة الموجودة في بلدته والتي أنشأها الماريشال بوجو Bugeaud بعد بضع سنين من غزو الجزائر، كي يجنّد لأسطولنا مجموعة من البحّارين المرعبين والقراصنة وأبناء القراصنة، الذين مارسوا القرصنة بجرأة كبيرة في مياه البحر الأبيض المتوسّط لسنوات طويلة.

لقد خدم الحاج أكلي اثني عشر عاماً في البحرية الفرنسية وانتقل من كونه مساعد بحّار إلى بحّار متمرّن إلى أن أصبح بحّاراً، وعند تسريحه من الخدمة استمرّ بممارسة حياة المغامرة والتّشرُّد، فقد كان مغرماً بالتنقل. ولقد مارس جميع المهن وتاجَرَ بكل شيء عبر الشّرق.

وعندما تعرّفت عليه كان قد ذهب إلى الحج ثماني عشرة مرّة.

كان يستفيد كل عام من هذه الرّحلة فيشتري جميع أنواع المجوهرات والأقمشة والأسلحة والتّحف، ويقوم ببيعها في فرنسا والجزائر أو حتى في مصر.

إنه أول من نصحني بالذّهاب إلى مكّة. ولم يكن ينفكّ يتحدّث عن روائع هذه المدينة المقدَّسة، وكان يرى أنه يمكنني أن أكتب عنها كتباً مصورة رائعة، وبالنسبة له ستكون أهمّ من جميع المجلدات التي نشرتُها عن الجزائر والقاهرة ودمشق وتونس وطنجة، الخ.

على كل حال كنت أشاركه حماسه هذا، ولو أنني لم أكن مرتبطاً بالخط الذي تمليه عليّ دار النّشر خاصتي لكنت ذهبت إلى هناك منذ سنوات.

* * *

كان من الممكن لرحلتي أن تكون مثمرة أكثر من ذلك، فإنّ هذه الإطالة قد أزعجت الحاج واشتد عليه مرض الكبد الذي يعاني منه، فلم أجد فيه ذاك الدّليل ذا النّشاط المتّقد والشّجاعة الفائقة كما كنت أتمنّى.

كان لديّ عدّة أصدقاء مسلمين في الجزائر. لم يحاول أي منهم ثني عن مشروعي بالسّفر إلى مكّة؛ بل على العكس شجّعني بعضهم بحرارة، وخاصة صديقي الحاج

عبد الرّحمن الطّبيبي، وهو طبيب مغربي يعيش في الجزائر.

يسكن الحاج عبد الرّحمن الطّبيبي في منزل صغير أبيض اللون مختبىء بين أشجار التّين والليمون والياسمين، موجود على تلّ بوزريعة Bouzaréa في وادٍ محمّي من الهواء الجنوبي البارد ومن رياح الخماسين الصّيفية. إن هذا المنزل يصلح كمكان يعتكف فيه الحكماء.

يناهز عمر الحاج عبد الرّحمن المئة، لديه لحية ناعمة ولطيفة تحيط بوجهه القوي المعافى؛ لقد كان دائماً يلبس ببساطة الصّوف الأبيض ويضع على رأسه عمامة مصنوعة من حرير الحجاز.

يقف الزّائر مشدوهاً من هالة الوقار المحيطة بهذا الشّيخ الجليل. إنّ نظراته حانية وتصرفاته مهذبة، وكل من يأتي لزيارته يشعر بالرّاحة وإن كان متهيباً في بادئ الأمر.

إنه يستقبل بحفاوة كبيرة الزّوّار والمرضى وهو جالس على الأرائك. يتسارع النّاس للحصول على معاينته، فقد كان معروفاً بمهارته في الطّب، وقد كان زوّاره من جميع الأديان، الأغنياء منهم والفقراء، يلجؤون إليه بعد أن عجز أي طبيب عن مداواتهم، فيدينون له إما بالمعافاة والنّجاة التّامة أو حتى بالتّخفيف من آلامهم، لكنه كان يمدُّهم دائماً بالأمل.

إنّ نظرته الصّافية تغوص داخل قلوب المرضى فتتقصّى وتكشف عن أكثر أفكارهم سرِّية، وكما يقول هو عن نفسه إنه طبيب للرّوح قبل أن يكون طبيباً للجسد.

إنني أؤمن بعلمه في مجال الطّب، فقد تمّ توارث المهنة في العائلة أباً عن جدّ منذ أيام جدِّهم الأكبر الذي كان طبيباً في قرطبة Cordoue، وإضافة إلى هذه العصور من العلم المتوارث، فقد كان لديه دراسات جديدة عن الأمراض التي تضني الإنسان وأدوية للأصحاء. وأؤمن خاصة ببعد نظره وتبصّره الأخلاقي بالأمور، وخبرته الأبوية وحلمه الذي لا ينفد.

لديه عدة أبناء وأحفاد وحتى أبناء أحفاد، فهو يعيش سعيداً محاطاً بعائلته الكبيرة التي تعامله باحترام ولطف شديدين. ضميره مرتاح جداً لأنه لا يسعى لجمع المال،

فالأغنيـاء يدفعـون له المال بـروح طيبة لقاء معاينتـه لهم، أما الفقراء فيقـدّم لهم كامل علمه دون أي مقابل.

لقـد سـافر كثيـراً خلال شـبابه، فـزار القاهرة ودمشـق وإسـطنبول. كما قـام بزيارة مكّـة والمدينة أثناء تأديته مناسـك الحج، وقد أيّدني بشـكل كامل عندما استشـرته في مشروعي لزيارة مكّة.

قـال لي عندها: «إنّـي أعلم جيداً تعاطفك الصّادق مع الإسـلام، واللـه يعلم ما في قلبك أكثر ممّا أعلم بكثير، اذهب ولا تخشَ شـيئاً. فقط خذ احتياطاتك ضد الشّـمس والحـرارة خصوصـاً إن كنـت ذاهبـاً إلى المدينـة - ولكـن امـضِ دون أي خوف فإن مقصدك شـريف، إنك تريد أن تتثقف ومعك الحق بذلك، وإنك سـتحبنا أكثر بكثير إن تعرفت علينا عن قرب.

«لا تخـَش شـيئاً فـي الطّريـق ولا تخشَ أحـداً من النّـاس، فإن لديك نظرة سـاحرة يمكنها أن تحجب عنك أعين الأشرار وهذا واضح.

«اذهـب يا بُنيّ دون أي خوف ولا تنـسَ أن تجلب لي القليل من خشـب الورد وقليلاً من ماء زمزم كي تثبت لي أنك لم تنسَني.... هناك....!»

أثرت ثقته الكبيـرة إيجابياً بالحاج «أكلي» الذي كان في الدّقيقة الأخيرة قد بدأ يقلق دون أن يعترف بذلك، وكنا قد عقدنا العزم بشكل نهائي على الذّهاب إلى مكّة.

بعـد أن خططت بشـكل جيد للرّحلة، عرضت مشـروعي بشـكل دقيـق على حاكم الجزائر مسيو كامبون Cambon.

لقد أبدى اهتماماً شديداً وخاصـة أن رحلة الحج من أهمّ ما يشـغل باله، وفرصة الحصول على معلومات حقيقية نزيهة ودقيقة عن الحجاز نادرة جداً، بما أنه لم يدخل أيّ فرنسـي إلى المدينة المقدسـة بعد ليون روش[1] Léon Roche أي منذ سبعة وخمسـين عاماً.

---

(1) ليون روش (1809-1900) مغامر ودبلوماسي فرنسي، عاش في الجزائر منذ عام 1832 وعمل في شبابه ترجماناً للجيش الفرنسـي في أفريقيا، ثم أضحى ضابطاً برتبة مُلازم في سلاح الخيّالة

ومـع ذلك هنـاك عدة إجـراءات واستفســارات عن الصّحـة والتّجـارة وغيرها من الأمور التي تهمّ الإدارة الجزائرية.

منذ عام 1830 اهتم جميع الحكام سـواء كانوا مدنيين أو عسـكريين بشـكل جدي بمراقبة وحماية وحتى تنظيم هذا الحج الذي يجب وضع أفضل القوانين من أجله، بما أنهم لـم يستطيعوا على الإطلاق منعه.

لقد رحّب السّيد كامبون بمشروعي، إلا أنه أظهر لي أيضاً المخاطر التي من الممكن أن تعترضني.

عرّفته على الحاج «أكلي» الذي أعلن بشـكل احتفالي أنه سـيعيدني سـليماً معافى، وقد وفى بوعده.

بعـد أن وضعـت خطـة الرّحلة قمت بتقديم طلب رسـمي لمهمة علميـة إلى وزارة الثّقافـة، لكنهم استشـاروا وزيـر الخارجية فعـرض مخاطر رحلة كهـذه وأعلن أنه لن يتحمّل مسؤولية إرسالي إلى هناك.

لذلك لم تصرّح لي الوزارة بمهمة علمية رسـمية، وبالمقابل أعلنت بشـكل رسمي رغبتها بعدولي عن فكرة المشروع.

كنت قد تعلّقتُ بفكرتي كثيراً فتجاوزت مباركة الحكومة، وحظيت بمساعدة بعض الأصـدقاء الذين دعموا المشـروع حالياً وبذلك استطعت تنظيم أمور الرّحلة.

وتحت مسؤوليتي الكاملة، أراد الحاكم العام أن يوكلني بمهمة خاصة لدى الشّريف والسّلطات الدّينية في مكّة.

الفرنسـي بالجزائر بين 1835-1839. طلب منه الماريشال بوجو التفاوض مع الأمير عبد القادر الجزائري لوقف القتال ضدّ فرنسـا، وقام من أجل ذلك برحلة شهيرة إلى مكّة عام 1837 ادّعى فيها الإسلام ولقّب نفسـه بالحاج عُمر بن عبد الله الجزائري. خدم في وزارة الخارجيّة الفرنسـيّة كمترجم عام 1945، ثم شغل منصب ممثّل الحكومة في اليابان 1864-1868.

أعطاني جواز سفر باسم عربي[1]، فأردت تقليد ليون روش Léon Roche بأن أكون مفيداً لبلدي وذلك دون التّخلي عن فكرتي الخاصة.

بالتّأكيد لا يمكن مقارنة المهمة المتواضعة التي أوكلت بها بمهمة سلفي المتميز ليون روش الذي أدّى مهمته بمهارة رائعة، لكن لا يهمّ فإنني لا أحلم بفخر أكبر من كوني فرنسياً حظي بمهمة رسمية للخارج مهما كانت متواضعة، ولدي شعور أن هذا سيشجع مَن هُم أقل جرأة مني.

استجمعت كل همّتي لأقوم بالمهمة التي تنتظرني، وإن لم أسترسل أكثر في شرح هذا الجانب من الرّحلة فسيتفهم القراء أنني كنت ملتزماً بالتّحفظ التّام ومن غير اللائق أن أتحدث عن ذلك.

لكن الآن بعد أن عُدت من الممكن أن أعترف أنني في غاية السّعادة، فقد أتممت مهمتي وحظيت بلقب الفارس في فرقة الشّرف. كما وقد أظهر لي حاكم الجمهورية أنني قمت بعمل مفيد، ولست راغباً أبداً بتذكر المآسي التي كابدناها والمخاطر التي تعرضنا لها.

* * *

استمرّ الحاج «أكلي» بإصراره على اعتبار مشروعنا سهلاً جداً، وعلى هذا الأساس كنت أطمئن أهلي وأصحابي.

بالنسبة له، تقتضي المهمة إيصالي إلى مكّة التي قد زارها إلى الآن إحدى وعشرين مرّة، وكان يراها سهلة لدرجة أنه لم يصرّ عليّ بأن أتقيّد بأوامر القرآن المشدّدة. إلا أنني تذكّرت الخاتمة المحزنة لحملة ليون روش[2]، فحاولت تجنّب خطر مماثل فاعتنقتُ الإسلام حسب المذهب المالكي المتّبع في الجزائر، وذلك تجنّباً لأيّ تعصب ديني يمكن أن يفاجئنا.

---

(1) وهو: عبد الله بن البَشير، كما سيرد في أحداث الكتاب أدناه.

(2) ذلك أنّ ليون روش قد تمّ اكتشاف أمره في مكّة عندما تعرّف إليه بعض الجزائريين الذين كانوا حُكم عليهم بالسّجن إبّان عمله مترجماً للجيش الفرنسي، فصاحوا بالنّاس أنّه جاسوس وغير مُسلم، وكاد يفقد حياته لولا أن أدركه حرس شريف مكّة فقبضوا عليه وهرّبوه ليعود سالماً إلى الجزائر.

هنّأني صديقي الحاج عبد الرّحمن بحرارة وقال لي: «كان هناك شعرة أمام عينيك لم تكن تمنعك من الرّؤية، وإنما كانت تجعل الدّنيا ظلاماً من حولك فلم تكن ترى بشكل واضح، وبما أنك قطعتها بلا خوف فهذا جيد وأؤكد لك أنك لن تندم أبداً».

غادرنا الجزائر أنا والحاج «أكلي» Akli في شهر مايو، حيث ذهب هو إلى مصر إذ كان لديه أمور شخصية هناك، أما أنا فتوجّهت إلى باريس بما أنه يتوجّب عليّ ترتيب أموري قبل الانطلاق إلى المجهول.

اتفقنا أن نلتقي في السّويس في شهر يونيو لننضمّ إلى القافلة الرّسمية للحجّ في المحمل المصري (السجّادة الشّريفة)[1] التي ترسلها القاهرة كل عام في موكب فخم إلى الأماكن الإسلامية المقدّسة.



انطلاق المحمل المصري من القاهرة

(1) لعلّه يعني كسوة الكعبة المشرّفة التي كانت تُصنع في مصر وتُرسل إلى مكّة المكرّمة في كلّ عام.

لكـن مشـاكل متالية غير متوقعة أعاقت سـفري، فانضمّ الحـاج «أكلي» وحده إلى الموكب الرّسمي للحج. إلا أنه تلقى مني رسالة في جدَّة أطلب منه أن ينتظرني هناك، فقـد كنـت أنـوي الوصول إليها في يوم 20 من شـهر يوليـو، وقلت له فيهـا: «إن كانت الإقامة في جدَّة شـاقة جداً عليك، فعُد إلى السّـويس وسـنلتقي عند القنصل الفرنسـي هناك، وعليك أن تذهب لمقابلته حال وصولك». فأبحرت إلى السّويس يوم 14 يوليو.

كنـت أرتـدي اللبـاس الكامـل لأيّ أوروبـي، إلا أنني كنـت أضـع الطّربوش على رأسـي، وجلبـتُ معي فقط ما لا يمكن الاسـتغناء عنـه، صيدلية صغيرة للسّـفر وطبعاً أدواتي الخاصة بالتّصوير، التي أخفيتها بمهارة داخل أمتعتي وبين الألبسـة العربية التي بحوزتي. لم نكد نرسـو حتى جاء القنصل الفرنسـي في السّـويس ليرى الكابتن الذي كان صـديقاً له، فعرض عليَّ أن أذهب إلى المرفأ على متن قارب خاص بمصلحة النّقل البحريـة، وفـي خلال المسـير علمت أن صديقـي الحاج كان قد زاره فـي الصّباح ذاته وهـذا ما أبهجني كثيراً. بدا كل شـيء جاهزاً إلا أنـه أضاف أنّ الحاج مريض جداً جداً، ومن الواضح أنه عانى كثيراً من الحجّ فكان يبدو وكأنه جثة متنقلة.

بالإضـافة إلـى ذلك، لـم يخبرني القنصل بمـكان إقامـة الحاج «أكلـي» بالتّحديد أو حتـى لـم يجـزم إن كان ما يزال في السّـويس، فمقابلته معه كانـت قصيرة جداً وغير واضحة ولم يصرِّح له الحاج عن أيّ من مشـاريعه، بل اكتفى بأن قال له:

«كان يجـب أن أنتظـر في جدَّة صديقاً جزائريـاً، إلا أن قوَّتي قد خانتني وأعتقد أنني سـأموت، أريد أن أرجع إلى بلدي بأقصى سـرعة ممكنة، ولا أعتقد أنني سـأتمكن من انتظاره هنا كما طلب مني».

إلا أنه بقي عندي أمل قوي في العثور عليه في السّويس، حيث أنه لم يكن قد وضع التّأشيرة بعد على جواز سفره.

ومنذ لحظة وصولي إلى اليابسـة بدأتُ بالبحث عنه.

إنها العاشرة مساءً والمدينة نائمة.

يوجد فقط بعض المارّة القليلين جداً الذين يمشون في الشّوارع المظلمة.

سألت الحمّالين الذين يحملون أمتعتي، وبعد ألف دورة أوصلوني في النّهاية إلى المكان الذي ينزل فيه المغاربة عادة، وهو عبارة عن مقهى ونزل في آن واحد.

يقع هذا الفندق في ساحة صغيرة، وقد بدا لي في هذه السّاعة المتأخرة من الليل فقيراً جداً ومُضاءً بضوء خافت يصدر من مصباح صغير.

دققت الباب، وفُتح بعد قليل من التّردُّد، وها أنا ذا أمام صالة كبيرة بسقف منخفض مليئة بالدّخان وقذرة، وعلى الأرض ترقد أشكال بشرية ملتحفة بأسمال رمادية.

سألني صاحب المقهى: «ماذا تريد من هنا أيها الغريب في هذه السّاعة المتأخرة؟»، وقد كان شديد الحذر خاصة عندما أخبرته عن ضالّتي.

«ليس عندي أحد بهذا الاسم، وهذا ليس وقت البحث عن الأصدقاء».

ألححتُ عليه فغضب وقام بدفعي قليلاً نحو الباب، فقمت بمحاولة أخيرة وأخذت أصرخ منادياً بالمغربي:

«يا حاج! يا أخي! حاج «أكلي» أيها الجزائري».

بعد سماع ندائي وقفت هيئة رمادية قائلة: «من ينادي على أخي المغربي؟»؛ كانت امرأة عجوزاً جداً ظهرت من بين الأقمشة القديمة الرّثة.

تقدَّمتُ نحوها وأخبرتها مَن أنا وعمَّن أسأل، فاهتزّ رأسها العجوز بشكٍّ وريبة.

آه! هذه الرّيبة الفطرية التي لا يمكن لشيء أن يضعفها، هذه الرّيبة الغريزية لشخص شرس بحضور عدوٍّ من جنسه، هذه الرّيبة التي تتملّك جميع المسلمين ضد مَن يشكّون بأنه مسيحي.

حاولت عبثاً أن أشرح لها كم أحبُّ الحاج «أكلي» وكم أنا متلهّف لرؤيته، خاصة وقد علمتُ بمرضه. لكنني لم أستطع أن أستخلص منها سوى بعض الأكاذيب، وقد أدركت أنها تعلم شيئاً بما أنها استفاقت عند سماع اسم صديقي.

في النّهاية قالت لي: «نعم، معك حق، هو موجود هنا في التسويس، لقد وصلنا جميعنا هذا الصّباح على متن سفينة «الخديوية» bateau Khedivieh قادمين من جدَّة، لكنني لا أعلم أين ينزل، ومن الممكن حتى أن يكون قد غادر مباشرة إلى القاهرة». وعادتْ إلى نومها.

لا يمكن لشيء الآن أن يجعلها تقول أكثر مما قالت، فأخذت أهزّها، لكنها لم تتمتم إلا بكلمات غير واضحة وبصوت ضعيف وكأنه أنين: «اتركني، لا تتعبني».

ألححتُ عليها ورجوتها ثم غضبتُ منها، فلم يخرج من بين شفتيها إلا هذا الكلام الثّابت المستمرّ «اتركني، لا تتعبني». وحلَّ النّعاس على جسدها العجوز البالي، فوضعني صاحب المقهى أخيراً على الباب.

* * *

وطبعا عند بزوغ النّهار عدت إلى مهمتي، لكن الآن مع تغير في الطّريقة: فقد أكد لي الجميع أن الحاج «أكلي» قد استقلّ عند السّاعة التّاسعة قطار القاهرة إلى جهة غير معروفة.

لقد أعطوني وصفاً دقيقاً له، طوله ولباسه؛ كانت الدّلائل أكيدة الآن لا مجال للشّك، لكن ما العمل؟

كانت العجوز المغربية تزعم أنه ذهب إلى القاهرة، وهي متأكدة أنها ستجده عند محمّد علي صاحب المقهى الذي ينزل المغاربة عنده عادة. بينما يزعم صاحب المقهى في التسويس أن الحاج قد ذهب إلى طنطا لبيع قطع اللؤلؤ والفيروز التي أحضرها معه من بلاد العرب.

كان عندي شعور قوي بأن كل هذا الكلام مجرّد أكاذيب، وإن لم يكونوا يريدون إرسالي إلى وجهات خاطئة، وهذا محتمل جداً، فمن الممكن أن تكون العجوز تريد أن أدفع لها تذكرة السّفر إلى القاهرة، وبالمثل يريد صاحب المقهى الذّهاب على حسابي إلى طنطا.

يجب أن أتخذ قراري، ولكن ما العمل في بلد مكتظّ بالسّكان كمصر؟ كيف يمكنني أن أجد صديقي؟

كان عليَّ أن أتعلق بأيّة قشة أجدها. أرسلت مبعوثين واحداً إلى طنطا والآخر إلى القاهرة، كما وعدتهما ببقشيش (إكرامية) كبير إن نجحوا بالعثور على صديقي، ثم أرسلتُ برقيات إلى أصدقائي في الإسكندرية والقاهرة، وخاصة في الإسكندرية حيث أنه ما يزال هناك أمل في أن أجده قبل أن يبحر. والبحث هناك سيكون أسهل وذلك بمراقبة السّفن المنطلقة إلى فرنسا والجزائر.

أخذت أنتظر نتائج هذا البحث وأنا فريسة الأفكار السّوداء؛ انتظرت ثلاثة أيام دون فائدة، فقرّرت الذّهاب. تركت متاعي الثّقيل عند صديق لي في السّويس وانطلقت إلى الإسكندرية محاولاً العثور بنفسي على هذا الرّجل الذي لا يمكن إيجاده.

كنت أنظر وأنا منحنٍ بلا انتباه على بوّابة العربة، إلى الصّحراء المصرية الكئيبة الخالية والممتدّة إلى الإسماعيلية، وكنت كلّما صادفت قطاراً في المحطات الصّغيرة أبحث بعيني متلهّفاً داخل المقصورات أملاً بالعثور على شخص يعرف أو حتى رأى الحاج «أكلي» فيخبره بملاقاتي في السّويس. إلا أن هذا كان بلا جدوى، فقد حلّ الظّلام ولم أجد شيئاً على الطّريق.

لم أحصل حتى على أيّة معلومة في طنطا حيث بقيت ساعتين، ووصلتُ أخيراً إلى الإسكندرية وقلبي متألّم وحزين، مقتنعاً بأنه لم يبقَ أمامي سوى الرّجوع وأنا مكسور الخاطر إلى الجزائر... عندها وجدت وبدهشة كبيرة، معتقداً بأنني أحلم، على رصيف محطة القطار في الإسكندرية، من وجدت بالضّبط؟ الحاج «أكلي» الذي كان ينتظر وصول القطار!!

تعانقنا وكنا متأثرين جداً وشرح لي أنه تلقى عن طريق السّيد الطّبيب شولر Schuler، وهو مراسلي في الإسكندرية، إحدى برقياتي فعلم بقدومي وجاء لملاقاتي «لكنه لا يعلم إن كان سيعيش للغد».

وبالفعل وجدته شـديد التّعب شاحب الوجه نحيلاً لدرجة مخيفة وعيناه تبرقان من الحرارة.

بشـكل آلي صعدنـا إلى البـاص الصّغير التّابع لفنـدق عبّاس، ووصلنا بسـرعة إلى هناك. كان الوقت متأخراً فطلبتُ العشـاء إلا أنهم تردّدوا في اسـتقبالنا في هذه المنشأة الفاخرة.

كنت قد نسـيت عندما اخترت هذا الفندق أن الحاج «أكلي» كان يبدو كمتسوّل، وأنا كشـخص بلا أيّة قيـمة خاصة مع الطّربوش الذي كنـت أضعه على رأسـي، إنّ لباسنا لـم يكن يصلح مطلقاً لفندق من الدّرجة الأولى.

غير أنني تحدّثت بصـوت مرتفع ومرتفع جداً، كما سـاعدتنا النّظرة المتعَبة للحاج، فاستقبلونا في الصّالة الكبيرة ولحسـن الحظ كانت فارغة فقدّموا لنا بعض الأطعمة ثم أخلدنا إلى النّوم.

في نهار الغد غادرنا هذا الفندق الفاخر جداً بالنّسبة لنا، ونزلنا بشكل مؤقت في نزل عربي يديره شـخص إيطالي غامض غير معروف.

أخذت الحاج «أكلي» إلى طبيب كانوا قد أوصوا بي عنده، فنصحنا وبإلحاح تأخير سـفرنا إلى بـلاد العرب، فقد كان صاحبي يشـكو الحمّـى الصّـفراوية وكبـده محتقن؛ ويلزمه قبل كل شيء هواء نقي، وراحة، وتغذية جيدة.

لذلـك قرّرنا الذّهاب إلـى بورصـة Brousse والقسـطنطينية، حيـث يمكنني متابعة علاج الحاج «أكلي» وبنفس الوقت آخذ بعض الوثائق للكتاب الذي عزمت على القيام به عن هذه المدينتين. ركبنا على متن سفينـة «جيروند» *Gironde* التّابعة لمصلحة النّقل البحريـة، وقد حظينا بكرم ضيافة لا مثيل له، فأبحرنا بهدوء تام، وكانت الرّحلة مريحة جداً متّجهين نحو موانئ الشّرق les Echelles du Levant.

* * *

العودة إلى الجزائر

خلال إقامتنا في الإسكندرية عشنا حياة المسلمين، كنا نأخذ وجباتنا في مطاعم العرب الرّخيصة، وندخّن النّرجيلة في المقاهي التّركية، وصلّينا بعض الصّلوات في المساجد المقدّسة.

وعندما نزلنا في بور سعيد استمرّينا في ممارسة هذا النّوع من الحياة والذي لم نغيّره طوال سفرنا.

أمضينا بضع ساعات للوصول إلى يافا، تعرّفتُ خلالها وبفضل الحاج «أكلي» على جميع المهرّبين والفراصنة الموجودين في هذا البلد الجميل. تناولنا هناك طعام الغداء وهو وجبة عربية في مطعم فقير في البلدة، وبعد ذلك قمنا مع ركاب آخرين بنزهة على الحمير في أنحاء المدينة.

لقد كان لنا محطة كبيرة في بيروت، وكان عندنا الوقت الكافي لنزهات طويلة في الأسواق والمتاجر. وقد اجتمع الحاج «أكلي» بأحد أصدقائه القدامى الذي لديه عدة مهن؛ فهو يعمل كرئيس للعتالين في المرفأ بمرتب شهري يبلغ 150 فرنكاً، وأيضاً كمجهّز سفن رسمي. إنه يملك أسطولاً من السّفن الشّراعية والسّفن ذات الصّاريتين، التي تصل قيمتها إلى مئات الآلاف.

يقوم أيضاً بتجارة نشطة وملاحة ساحلية ناجحة بين يافا وبيروت ومرافئ الشّرق les Echelles du Levant. إنّ ما ينقله من بطيخ وبرتقال وفواكه (وغيرها من البضائع)

تمدّه بأرباح تبلغ ثلاثة أضعاف ما يجنيه البائع والمحمّل، وأقولها بصراحة أكثر ممّا يجنيه المهرِّب.

يمكننا أن نراه وبشكل متناوب يحمل حقيبة سائح أوروبي أو يكون حكماً في المرفأ، ومن الممكن حتى أن تجده يستمع لتقرير يقدّمه قبطان ما عن أسطوله.

قام بدعوتنا أنا والحاج «أكلي» إلى الغداء بكرم واضح، وكان لدي الوقت الكافي لدراسة هذا الوجه الغريب الذي عليه هيئة قرصان حقيقي من الزّمن الغابر، طوله فارع وعيناه سوداوان لامعتان، شاربه مفتول، يلبس بأناقة تامة قماش جوخ مزركش بالحرير. كان الحوار يدور حول رحلة قام بها إلى پاريس عام 1889 حيث يقام معرض ضخم هناك. وأخذ يحدّثنا بزهوّ عن النّجاح الذي حظي به من مختلف الأصناف التي جلبها من هناك.

قال الحاج «أكلي» إنّ صديقه هذا مثله من أصل زواوي *zouaoui* ولم يتوقّف كلاهما عن مدح هذه القبيلة الشّامخة التي ظهر منها أفظع وأشجع القراصنة وأكثر الزّعران شراً على وجه الأرض.

أمدّت هذه القبيلة لاحقاً الأمير عبد القادر بالزّواويّة *les zouaouas* المشهورين بنظامهم، وقد أصبح اسمهم «الزّواف» *zouaves*.

وجدتُ أن أبحاثي عن التّهريب والمهرِّبين كانت قد اكتملت تماماً، فأهملت مسألة النّزول في طرابلس والإسكندرية.

كان لدينا وقفة بسيطة في مَرْسين، ولسوء حظنا كانت المدينة مصابة بالكوليرا، أو هذا ما أُشيع عنها، ومنذ وصولنا إلى ساموس Samos منعونا من ممارسة أي شيء، واضطررنا إلى تجاوز إزمير وأمضينا مدّة الحجر الصّحي التي استمرّت خمسة أيام في كلازومين Clazomène.

لقد نفد صبر الحاج «أكلي» فالحياة على الشّاطئ أتعبته أكثر من أن تريحه. ومع

أنـه كان يُعامَـل بشـكل ممتاز في الدّرجـة الأولى فقد بـدا تعسـاً، إذ كان يعاني من كل شيء ومن لا شيء. من الممكن أن يكون من الهيئة التي يجب أن يحافظ عليها، أو من اللباس الذي يرتديه، حقيقة لا أعلم.

قمنا بعدة نزهات طويلة لتسليته وذلك قبل إعلان الحظر، كان بصحبتنا سائق بحّار وهو جزائري عربي كان يعرفه وهو لا يزال طفلاً.

وفّـر لنـا هـذا الصّبـي الطّيـب خدمـات بسـيطـة، فكـان يقـدِّم لنـا الدّجـاج المذبـوح على الطّريقـة الإسـلاميـة، كتغيير عـن الفواكـه والخضـار التي كنا نأكلها نيئـة على هـذه الطّاولـة غيـر الوفيـة. كمـا كـان يُعدّ ديكاً بالعجّة وبعض المقالي. إلّا أن الحـاج «أكلـي» أصبح أكثر عصبيـة، فقـد كان المرض يهيّجه كل يـوم أكثر من ذي قبل.

وقـد طفـح الكيل عندما تـمّ إعلان الحظر الصّحي لمدة خمســة أيـام، عندها أعلن الحاج بصراحة أنه لن يذهب أبعد من ذلك.

كـان مقـرّراً أن تبحـر سـفينة «جيرونـد» مـن إزميـر عائـدة إلـى فرنســا مروراً بسـالونيك. فقرّر أن نبقى على متنها ونسـافر مباشـرة إلى الجزائر حيث سـيكمل فترة نقاهته هناك.

رضختُ رغماً عني لإرادته، إلّا أنّ أيّام الحظر بدت لي تعيسـة جداً في هذا الخليج الكئيب الموحش في كلازومين.

ولـو أن الظّـروف كانـت غيـر ذلك لكنا سـعدنا جـداً بهـذه الإقامة على الشّـاطئ، وخاصة بوجود مسـافرين فرنسـيين هما السّـيد والسّيدة شـانتر Chantre العائدين من رحلـة استكشـافية في آسـيا الصّغرى، كما وأنّ هيئـة الأركان العامة لسـفينة «جيروند» أظهرت لنا لطفاً لا يوصف.

لكـنّ صديقـي كان مريضاً سـريع الغضب وعصبياً جـداً. كان يريد مغـادرة المكان بأسرع وقت ممكن، وكان من الصّعب جداً عليّ أن أشعر بالسّعادة.

لقد اجتزتُ شـوارع سـالونيك وزرت آثار أثينا بشـرود تام، وكان هناك أخبار أسوأ بكثير تنتظرني في مرسيليا.

أخبرونـي أنّ هنـاك حالة وفاة مؤلمة في العائلة، وسـأعود إلـى الجزائر لأجد عائلة تبكي وقبراً جديداً لأصلّي عليه.

* * *

من الجزائر إلى جدّة

كان علينا معاودة السّفر - مع أننا لم نمكث طويلاً. فقد استردّ الحاج «أكلي» Akli شيئاً من عافيته بفضل رعاية صديقنا عبد الرّحمن الطّبيبي، ولم يعد هناك خوف علينا من الحرارة المفرطة للحجاز، فقد أوشك الصّيف على الانتهاء. عدنا وركبنا على ظهر سفينة غلوكوس *Glaucus* التّابعة لشركة هولتز والتي لديها كل أسبوع رحلة من الجزائر إلى پور سعيد.

بمجرد ركوبنا على السّفينة وطبعاً تحت اسمين مستعارين، كانت هناك مفاجأة بانتظارنا.

كنا قد رتّبنا حقائبنا الصّغيرة عند الجسر على أفضل وجه، فجاء الحاج «أكلي» إلهامٌ مفاجئ؛ لقد أعطى أخاه أحمد صاحب محل الورد قطعة نقدية بقيمة عشرة فرنكات ليقوم بزيارة *ziara* باسمنا للولي عبد الرّحمن الطّالبي، والذي يهيمن قبره على الأسوار القديمة للقلعة.



حجّاج على متن السّفينة

هـذا المبلـغ مخصّص لتقديم وجبة كافية من الكُسْكُس لفقراء هذه المنطقة لتكون سفرتنا تحت رعاية الله.

بمجرد أن قدَّمنا هذه الصّدقة، صعد صاحب السّفينة إلى المركب عند الانطلاق، ولأجل الصّدقة الكبيرة تعرَّف عليّ وسألني عن هدف رحلتي. وهنا تعجّب لماذا لم أقطع التّذاكر مباشرة إلى جدَّة فإن سفينته ستتوقف بشكل استثنائي في هذا المرفأ.

كانت فرحتنا عارمة - فلم يعُد هناك حاجة لتغيير السّفينة في السّويس وسنكون مرتاحي البال حتى الحجاز - كان هذا الخبر كافياً لإبهاجنا، فاستعاد الحاج هدوءه وهو مقتنع تماماً بأننا تحت رعاية الولي عبد الرّحمن الطّالبي - الذي يهيمن قبره على الأسوار القديمة للقلعة....

* * *

ها نحن أولاء في طريقنا وبأسعد طالع - إلّا أن السّفر كان قاسياً. أمضينا عشرة أيام في البحر كركّاب في الدّرجة الفقيرة، محجوزين في المقدمة كالمواشي، ولم أحصل على أية مزايا سوى سرير صغير من الخشب عند الأمتعة المربوطة بالحبال، تعشّش فيه رائحة كريهة من الملح والزّفت.

لكن كان يجب أن نأخذ حذرنا وأن نبدو فقيرين، فإنّ أيّة قلة رصانة من البحَّارين من الممكن أن تجعلنا نخسر كل شيء سواء في السّويس أو في جدَّة.

كنتُ أعيش حياة العرب بشكل مطلق، فاعتدتُ منذ البداية على عدم الرّفاهية وعدم الرّاحة.

كان طعام الغداء فقيراً جداً، ولم يكن بأستطاعتي طلب أيّ شيء من الطّبّاخ المسيحي. أصبح الخبز المجلوب من الجزائر جافاً أكثر فأكثر، بل إنه أصبح نادراً.

تزوَّدنا ببعض المؤن في بورسعيد وفي السّويس، لكن كان يجب علينا مشاطرتها مع الإخوة الذين ركبوا معنا في هاتين المحطتين ولم يبقَ معنا شيء يذكر، فوصلنا إلى جدَّة خاويَيْ المعدة.

بالمقابل، منذ توقفنا في السويس قمنا بجمع بعض الملاحظات! كان هناك أناسٌ من مختلف الأعراق مجتمعين عند جسر «غلوكوس» *Glaucus* وكأننا في متحف. ركب معنا جمهور من الرّكاب من مختلف الأجناس قادمين من أماكن مختلفة، من بيروت والمدينة ودمشق ومن مصر والسودان.

منذ اليوم الأول تعايشنا بعضنا مع بعض في مقدمة السفينة، وذلك بفضل الحاج «أكلي» الذي يتحدّث جميع لغات العالم. تبادلتُ السّلام بخمس لغات مختلفة فتآخينا أكثر فأكثر بعضنا مع بعض، سوى مع ضابطين مساعدين تركيين قادمين من صنعاء والحُدَيدَة في اليَمَن.

كان هذان التّركيان يشكّلان مع خادمهما عصابة، فلا يتحدّثون مع العرب إلا كمُراعاة للمظاهر، حتى أنهم كانوا يتجنّبونهم قدر المستطاع.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي ألاحظ فيها هذا النّوع من العدائية بين العرب والأتراك، وهذه حقيقة الحال في كل بلاد العرب.

عند جسر «غلوكوس» *Glaucus* كانت القصائد التّهكمية تتنزّل على هذين التّركيين. فإذا اتجهت أنظارهما نحو الشّاطئ صرخ أحد العرب: «إنك تنظر إلى بلاد العرب بلاد النّبي محمّد، لقد كان نبينا ﷺ عربياً؛ وهذا ما يزعج الأتراك أليس كذلك؟» ويضيف ضاحكاً: «إلا أنّ سلطانك لا يمكنه فعل شيء إزاء ذلك».

وفي مرة أخرى بينما كان التّركي يتناول الشّاي لوحده دون أن يدعو أحداً معه، قال له شخص من المدينة المنورة: «أعتقد أن ليس بين العرب من يشرب الشّاي وحده دون أن يقوم بدعوة الآخرين». فأجابه التّركي: «لكنني أعتقد أنه في بلاد العرب عندما يرى شخص ما الآخرين يتناولون الشّاي فليس من الضّروري أن تتمّ دعوته، مَن يريد فليتفضّل».

فردَّ عليه المديني بسرعة: «إلا أننا في بلاد العرب نشرب القهوة وليس الشّاي، فيسمع الجيران صوت مصبِّ القهوة النّحاسي، فليس هناك ضرورة للدّعوة، أما بالنّسبة للشّاي فالدّعوة واجبة لأن شربه لا يجلب الضّجة».

استمرّت هذه المضايقات على هذا الشّكل لمدّة ثلاثة أيام، وهذا ما أفرح كثيراً بدويين من مكّة المكرمة، وهما شيخان آتيان من البلاد الحارّة، وازدات النّظرة السّيئة تجاه التّركيين أكثر فأكثر.

كان هذان الشّيخان البدويان مهمّين جداً بالنّسبة لي - فقد كانا حاصلين على شرف قيادة القافلة المقدّسة للمحمل المصري العائد من الحج براً منتقلاً من مكّة إلى المدينة ومن ثم إلى القاهرة.

كانا عائدين إلى ديارهما بعد أن أنهيا مهمّتهما الجليلة وأمضيا إجازة بسيطة في القاهرة.

كانا يرتديان جلبابين خفيفين ويضعان حلياً من الذّهب وكأنهما ملكان من ملوك المجوس، وكان بصحبتهما عبدٌ أسود.

كان لعبدهما هذا طولٌ فارع وكنا نناديه باستهزاء بريء بلقب الشّيخ سالم، وهو أسود ضخم الهيئة، لديه قدمان بدينتان كقدمي الفيل ويدان كبيرتان جداً بأصابع صلبة مغطاة بجلد قاسٍ سميك يمكّنه من التقاط الفحم المتّقد دون الشّعور بأي ألم، ومن ليّ الحديد لصنع الكماشات.

وكان لُطفه يعادل قوّته، فهو متلهّف لخدمة سيديه وكان يبعد الذّباب والنّاموس عن وجهيهما أثناء النّوم، كما كان ينصب لهما الخيمة بسرعة فائقة وينقلها حسب حركة السّفينة.

وعند العشاء كان هو أيضاً مَن يحضر لهم الوجبة الاقتصادية المؤلفة من الأرزّ المسلوق مع الخبز الأسود، ويؤكل مع البصل النّيئ والتّمر.

وكان هذا الأخير يأكل لوحده طعاماً قليلاً بالنّسبة إلى حجمه الضّخم، وعندما يأتي الليل يحضر السّجاد والأرائك لسيديه، ثم يتمدّد هو ويدندن طويلاً قبل أن ينام أنغاماً وحشية من البلاد السّوداء.

وكان معنا في الرّحلة بائعٌ صغير من المدينة المنورة، وكانت مناقشاته لا تنتهي وغالباً ما تنمّ عن الفضول.

كان يقضـي جـزءاً مـن الـسّـنة مسـافراً للتّجـارة مـن القُصيـر Kosaïr إلى سـواكن Souakim ومـن الخرطوم إلى مُصوَّع Massouah، ومن جـدَّة إلى الحُدَيدَة وصنعاء. كان يعلـم جميـع الأقاويل عن البلاد التي يقطعها: فمثـلاً الفتن ضد الأتراك في اليمن، وتطوّر التّأثير الإنكليزي على السّودان، ونجاتهم وفشلهم. لم يكن هذا الرّجل الصّغير يتعب أبداً.

لقـد أثـار فضولي كثيراً، واسـتفدتُ من وجوده في أبحاثي من خـلال تعليقاته على التّاريخ المعاصر كما يراه، بعيداً عن الطّريقة التي ننظر إليه من خلالها.

كان من المفيد سـماع هذا السّياسـي العربي يتحدّث مثلاً عن السّيطرة على تمبكتو Tombouctou يلحقها مباشـرة مجزرة العقيد بونـيه Bonnier، أو حتى سـماعه يتكلّم عـن الانقـلاب المفاجئ في مواقف غـوردون پاشـا Gordon Pacha والكوارث التي حصلـت، وكان حسـب قوله شـاهداً عليها جميعها عـن قُرب. وأيضـاً كأيّ عربي من البلاد العربية كان يندِّد بالاحتلال التّركي وإدارته، إلخ... «آه لو أنّ ملك نجد ابن رشـيد أراد»، ويكمل جملته بتنهيدة عميقة.

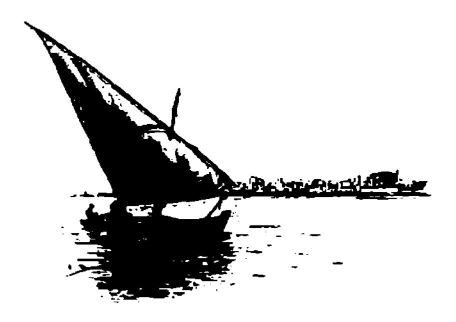
وكان الشّيخان البدويان يستمعان إليه بنهم ويحلمان مطولاً، وبعد سـكون مطلق كانا يدندنـان ألحاناً حربيّة يتبعانها بإيقاع متناوب مع كف اليد ونهايات الأصابع ويلحقانها بمارش عسكري.

هـذا مـا كان عليه الوضـع خلال النّهار، مناقشـات بين مجموعـات وذهاب وإياب إلـى المطبخ، بالإضافة إلى قيلولات طويلة خلال سـاعات النّهـار المنهكة، وبمجيء الليـل كانـت الأحاديث تذوي. وبعد احتسـاء عدد غير محدّد من كؤوس الشّـاي التي كنا نتـبادلها بين بعضنـا البعض بأدب، كنا نتمدّد ونحلم بالنّجوم ثم نخلد إلى النّوم على صوت الأمواج المتلاطمة على مقدمة السّـفينة وصـوت المروحة الضّعيف القادم من الخلف.

* * *

جـــدَّة

بعد ثلاثة أيام من مغادرة السّويس وجدنا أنفسنا عند مشارف جدَّة. انتظرنا طويلاً وصول مُرشد ما، فقد كان مجيء سفينتنا غير متوقع. وصل أخيراً وصعد على متن السّفينة؛ فظهر لنا رجل صغير يلبس ثوباً طويلاً ويضع على رأسه عمامة هزيلة. نظرته سوداء حارقة متجهة نحو الأفق وثابتة، لا يطرف له جفن، يقود باللغة الإنكليزية حركة السّفينة إلى المرفأ.



رسونا على بعد عدة أمتار من اليابسة، في مكان أبعد من المعتاد؛ فقد كان قبطاننا شديد الحرص، وهو دون أدنى شك لم يكن يريد زيادة العدد الذي لا يستهان به من السّفن الجانحة على الشّاطئ وحطام السّفن المنكوبة.

نرى هنا سفينة بخارية مقسومة قسمين، وهناك نلمح صارياً طافياً، وفي مكان أبعد نجد شراع المقدمة وقطعة من مدفأة....

هناك أرصفة مرجانية موازية للشاطئ طافية على وجه الماء بشكل صخور متعرّجة، وهذا ما يشكّل خطراً دائماً بالنّسبة للسّفن. ومع أنّ بحّارة البحر الأحمر العرب معروفون بمهارتهم فمن الواضح أنه «لا يمكن ردّ القدر».

هذا ما قاله لنا الملاحون الذين أوصلونا إلى اليابسة: «غرق حقيقي» وأضافوا ضاحكين ضحكة تكشف عن أسنانهم الحادة: «أترى يا أخي هذا المركب الغارق؟ لقد كان مركباً بخارياً قادماً من موكادور[1] Mogador وطنجة، وكان مليئاً بالحجّاج المغاربة، إلّا أن القبطان الإنكليزي لعنة الله على جنسه، كان قاسياً جداً وعديم الإنسانية تجاه إخواننا طوال الرّحلة....

بمجرد رؤيته للأرض المقدّسة وبشكل غير إرادي، ورغم مهارة القبطان، دفعه الله عز وجل إلى الشّاطئ. كل الحجّاج نجوا بالطّبع لأنّ الله عادل، إلا أن المركب ضاع بشكل كامل، الله أكبر! ومن جهة أخرى كانت الحادثة نعمة غير متوقّعة بالنّسبة لنا، فإن نجاة قسم من الشّحنة أمدّتنا بمكاسب جيدة جداً....».



ميناء جدّة

(1) موكادور جزيرة صغيرة توجد قرب مدينة الصويرة بالمغرب على المحيط الأطلسي، ويعتبر من أهم المواقع الفينيقية بغرب البحر الأبيض المتوسط. أثبتت الحفريات الأثرية التي أجريت بالجزيرة وجود بقايا أركيولوجية تتمثل في أواني فخارية وأحفورات يرجع أقدمها إلى النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد. وقد جعل منها الفينيقيّون قنطرة للرّسوّ حين كانوا يسافرون عبر البحر إلى الإكوادور.

كان الهواء شديداً ومركبنا من نوع السّمبوك sambouk قديم وتالف، يرتفع تارة بقوة بين الصّخور المرجانية وتصطدم مؤخرته تارة أخرى بقاع البحر، مما أخاف الشّيخين البدويين اللذين كانا على ما يبدو يخشيان البحر. أنزلنا الأشرعة وقمنا بآخر تجديفات بالعصي الكبيرة، فاندفع المركب بصعوبة هائلة بعد أن كاد يغرق بالرّمل والوحل، فقد كان منسوب البحر منخفضاً جداً. ثم سمعنا الهرج والمرج المميّز لنزول الرّكاب في الشّرق – صراخ وإزعاجات وتدافع وتفتيش عن التّصريحات على جوازات السّفر، ومضايقات الجمارك والصّحة، الخ....

تخلص الحاج «أكلي» من هذا الوضع بأعجوبة، أمّا أنا فبقيت في إحدى الزّوايا أراقب الأمتعة بينما يقوم الحاج بإنهاء الإجراءات الشّكلية، إلا أنه يبدو أنني قد لفتُّ انتباه الشّرطة التّركية، فأخذوني ببساطة إلى المركز.

إنها بداية سيئة. لم أكن أتحدث التّركية، ولغتي العربية الجزائرية لا يفهمها أحد، وجواز سفري مع الحاج «أكلي». بدا كل شيء معقّداً ومتشابكاً حتى وصل صديقي لحسن الحظ ووضّح كل الأمور. قمت بدفع رسوم الصّحة والتّأشيرات على الجوازات، وبالطبع لم أعد أحسب ما دفعت من بقاشيش، وها نحن حُرَّان... لكننا مراقبان... لقد راقبونا حتى وصلنا إلى المنزل الذي اخترنا النّزول فيه، وهو منزل عبد الرّحمن أفندي، ترجمان القنصلية الفرنسية، واستمرّوا بمراقبتنا حتى عند أول خروج لنا، وبالصدفة تمَّ استجوابنا في المحلات حيث كنا نقوم ببعض المشتريات.

بدت سهرتنا الأولى تعيسة وكأننا في مأتم. خفض الحاج «أكلي» رأسه وهو لا يعرف كيف يسيطر على انفعالاته وماذا يجب أن يفعل. إنّ الاحتجاز الأول هذا يُعدّ نذير شؤم بالنّسبة له.



قارب سمبوك

جعلني أحلق شعري قصيراً جداً، وأغيّر ملبسي. أخذ يأتي ويروح بعصبية شديدة مغيراً بالساعة الواحدة مخططاته وأفكاره عشر مرات....

* * *

في اليوم التّالي وبعد ليلة من الهدوء والرّاحة، استعاد رباطة جأشه قبل أن يقوم معي بجولة طويلة في جدَّة.

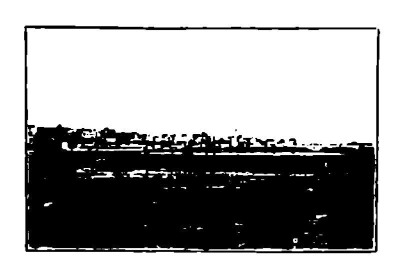


جدّة، منظر شامل

هذه المدينة مشيَّدة على شاطئ البحر في وادٍ منخفض رملي، لا أثر فيه لأيّة تلّة أو اعوجاج في الأرض؛ في الحقيقة هي عبارة عن شاطئ شديد الحرارة وقاحل.

ميناؤها كئيب وحالته يُرثى لها. ستكون هذه الإقامة من أسوأ الإقامات التي يمكن

تخيلها؛ مجموعات من النّاموس تهاجمك ليلاً نهاراً، المياه سيئة، الحرارة منهكة والرّطوبة عالية، ولا أثر لأيّة خضرة يمكن لها أن تبهج هذا المنظر الكئيب الحزين الذي يحيط به.



تتمة منظر جدَّة الشّامل

يوجد عند مداخل المدينة بعض الشّجيرات الشّوكية التي تتخلّل الأكواخ الفقيرة للقرية السّوداء، وهنا فقط توجد جميع نباتات هذا البلد الملتهب الصّحراوي.

الحركة كثيفة في الشّوارع والمحلات، فهي مركز تجاري ضخم، والمنازل مبنية بشكل متين، بل إنها مزركشة بمشربيات جميلة جداً. لكن لا يمكن لشيء أن يغطّي طابع الموت والعدم الذي يستحوذ عليك منذ وصولك إلى جدَّة، تلك المدينة القادمة من عصر آخر؛ واحات من الحجر ضائعة بشكل مرعب على هذا الشّاطئ المجدب.

خرجنا في الصّباح الباكر من باب مكّة، وبعد زيادة بسيطة لقبر أمّنا حوّاء قمنا بجولة حول الأسوار.

يحيط بالمدينة سور قوي يحميها من هجوم قبائل البدو في المنطقة في أيام الثّورات. إلّا أنّ الثّغرات تظهر في كل مكان من الحائط المنهدّم، وفي الموقع نفسه عند الجهة الجنوبية الشّرقية نلاحظ بالكاد حجارة مبعثرة تبيّن المكان الذي كان يشغله جدار السّور قديماً.

لقد رأى الحاج «أكلي» سابقاً العمل الفنّي الجريء الذي قام بتشييده قطّاع الطّرق في الصّحراء، وانتقد بشدّة هذا الإهمال من الإدارة التّركية والتي هي حسب رأيه متّهمة بالتّقصير، وهذا ما ستندم عليه في يوم ما.

* * *

للعودة إلى المدينة عن طريق الشّاطئ، مررنا على يسارنا بمقبرة متواضعة للمسيحيين المنبوذين، وكأنها نُزُل للموت. يوجد جدار يحيط بحقل مربع حيث يرقد في التّراب الملتهب بعض الأوروبيين، سواء كانوا قناصل أو مسافرين، وسواء ماتوا في جدّة بشكل طبيعي أو قُتلوا كأغلبهم، مثل المسكين شارل هوبر Ch. Huber الذي له قبرٌ متواضع يضمّ بداخله الأجزاء المتبقيّة منه والتي تمّ جمعها من الصّحراء، وهذا إن لم يكن بقية قناصلنا ضحيّة خداع مشؤوم، كما يشاع في جدّة.



سور جدّة المحصّن

ماذا يهمّ؟ رمل على رمل وصحراء بصحراء، إن كان رماده قد تبعثر في اللانهاية أو إن تمّ جمعه باحترام تحت هذه الصّخرة حيث يُحفر اسمه عليها. ماذا يهمّ بما أن ذكراه محاطة بهالة النّصر ومحفورة في قلوبنا، وبما أن المجتمع الفرنسي قد لبس أثواب الحداد على هذا الجندي المتواضع الذي توفّي في ميدان الشّرف.

ها هي ذي الأرصفة مزدحمة بالبضائع القادمة من كل مكان. صفٌّ لا ينتهي من قوارب السّمبوك مسحوبة على الشّاطئ بسبب انخفاض مستوى البحر ومنحنية بشكل حزين على أوتادها. أشرعتها الممزّقة تتدلى برخاوة على الصّواري، ولا يوجد نسمة هواء، فلم يكلّفوا أنفسهم بربطها...

كان الطّريق الذي سلكناه مسدوداً تقريباً بالقرميد وعوارض الحديد وأدوات من كل الأشكال الملقاة عشوائياً على الأرض والمطمور نصفها بالتّراب.

كان الحاج «أكلي» يراها هنا على هذا الحال منذ سنوات، قال لي: «هذه الأدوات مخصّصة لبناء المشافي والمحاجر الصّحية والحمامات، كان هذا الأمر نزوة وعلى الأغلب لن ينتهي بشيء مطلقاً».

وصلنا إلى ساحة البلدة التي لا يوجد غيرها في جدَّة. استقبلنا صيدلاني صديق للحاج بلطف كبير، وقبلنا بروح طيبة كؤوس الشّاي منه والتي لا مناص من شربها. إنه يتحدث بشكل سليم الفرنسية والإيطالية واليونانية ومختلف اللهجات العربية وزيادة على ذلك اللغة الإنكليزية. إنه متواضع جداً ولطيف جداً، وبشكل عام هو محبوب من الجميع.



بيت عربي في جدَّة

تابعنا نزهتنا في المدينة وزياراتنا لأصدقاء الحاج. إنه يعرف الجميع في جدَّة ويبدو أنهم يهابونه كثيراً، فهم يستقبلونه بشكل ممتاز، أمّا أنا فينظرون إليّ نظرة الشّك.

كان كل ما يحدّثهم به الحاج عنّي لا يجعلهم يخرجون عن نطاق الأدب مع برود

واضـح. والـذي أثار دهشـة الحاج وأحزنه هـو أنه لم يقم واحد منهـم بدعوتنا لا على الغداء ولا على العشـاء،... وهذه إشـارة سيئة بالنّسبة لبلد عربي! إنّني على ما يبدو مشتبه به.

قال لي الحاج «أكلي»: «فلنذهب لرؤية الحاج علي عُمدة Ali Omda، سنلجأ إليه فهو أعزّ صديق لدي، وسينصحنا».

هـا نحن أولاء قد وصلنا. وجدنا هنا ترحيباً حـاراً انتعش له الحاج وامتدحني كثيراً عنـد صديقـه الذي أخذ ينظـر إليّ بعمق، وأعلن لـه بصراحة عن مخططاتنـا. ثم حدّثه عـن صحته التي تتدهور من يوم لآخر، قال له: «إنني أعاني بشـدة من كبدي وآكل وأنا مُكره». وفي النّهاية وبمكر شـديد تظاهر بأن لديه رغبة شـديدة في تناول سـمك جدَّة المعروف بطعمه اللذيذ، وأكاد أقسم أنه دفعه لدعوتنا على العشاء هذه الليلة.

لقد دعا الحاج علي عُمدة بعضاً من أقاربه معنا على العشاء، وشعرتُ بأنني مراقب عـن كثـب، وبما أننـي كنت جاهلاً بأعـراف أهل الحجـاز، فقد تصرّفت علـى ما يبدو بشكل سيئ جداً على المائدة.

يجـب أن آكل بأصابعي الأرز المطبوخ بالسّـمن. في الحقيقة كنت أرمي الكثير منه على ملابسـي وعلى السّـجادة. كان السّـمك مرفقاً بصلصة غير مألوفـة الطّعم، ورغم شجاعتي لم أستطع بلعها دون أن أشرب الماء بشـكل متكرّر.

يقتضـي العُـرف هنا أن تأكل العشـاء كلّه دون أن تشـرب الماء، وأنـا أزعج الجميع بطلبـي المتكـرّر للماء من العبـد المكلف بالخدمـة. باختصار، تصرّفـت كرجل قليل التّهذيب.

عُـدت للمنـزل وقد أصابني الملل كثيراً، فقد عاينت صعوبات مشـكلتي عن قُرب. أظهر الحاج «أكلي» الذي يتألم من وجع الكبد، قلّة حلم تجاهي وعنّفني بشـدة قائلاً: «إنك لسـت ذكياً مطلقاً، حتى إنك لا تعلم كيف تتصرّف على مائدة الطّعام».

أخلدت إلى النّوم وأنا شـديد الحزن. اسـتيقظت حوالي السّـاعة الحادية عشرة على

دقات الباب؛ إنه مضيفنا السّيد علي. فتحنا له، فدخل ودون أية مقدمات، قال لي:

«أخـي، حاولـت النّـوم جاهـداً إلا أن هناك فكرة تشـغل بالي. لقد خالفـتُ عاداتي وخرجت أثناء الليل، وأنا لا أخرج مطلقاً بعد مغيب الشّـمس، هذا ما يخبرك به جميع أهـل جـدَّة. إنني متزوج وأب لعائلة، ولسـت أبـداً من الذين يتنزّهون في المسـاء، لقد أصبـح بيننـا خبز وملح، إنـك عزيز عليّ، فجئـت لأقول لك ما يكمن فـي صدري. لا تذهبنّ إلى مكّة. إنك لن ترجع سـالماً، ورمل الصّحراء مليء بآثار أولئك الذين أرادوا مثلك دخول مدينتنا المقدَّسة».

فأجبته:

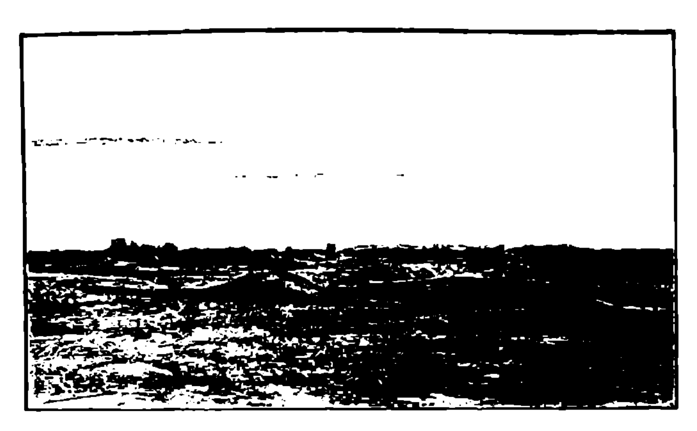
«الله أكبر، أنا لا أخشى سواه، إن كان يريد قتلي فأنا مُلك يديه. إنه يرى ما في قلبي ويعلم حسن نواياي».

فاعترض سـي علي Si Ali قائلاً: «إنّ نبيّنا يحرم الانتحار، وأنت بهذا الشّكل ترمي بنفسك إلى النّار، وهذا خطأ».

«لقد نطقتُ بالشّهادتين «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله»، ومن يريد قتلي سيكون مسلماً عاقّاً وسيعاقبه الله.

فتراجع سي علي مذهولاً.

عنـد طلوع النّهار عـاد إلينا، إلا أنه عاملنـي بصبر وأخوية. فأخـذ يفقّهني في الدّين ويعلمني كيفية الوضوء والصّلوات الخمس. وبسـرعة وثق بي ولم يعد يعتبر مشروعي ضرباً من الجنون. أراد أن يبقيني بجانبه على الأقل ثمانية أيام أخرى؛ لكنني كنت على عجلـة مـن أمري، فمـن جهة أريد الانتهـاء من هـذه الرّحلة، ومن جهة أخـرى بدأ بال النّاس ينشغل بهذا المسيحي الذي اعتنق الإسـلام حديثاً والذي يريد الذّهاب إلى مكّة، فقرّرت أن أستعجل بالرّحيل.



الرّحيل من جدّة، والطّريق إلى مكّة

* * *

من جدَّة إلى مكّة

كان أمامنا وسيلتان لقطع المسافة الفاصلة بين جدَّة ومكّة والتي تبلغ 87 كم، وهما إما الجمال أو الحمير.

إنني أفضّل الجمل، وأحبّ مشيته المهدهدة وهيئته الخاملة؛ إنّ الجمل هو المطيّة الأساسية لهذه البلاد المقفرة والقاحلة، فهو مثير للسخرية ومقاوم، تصرّفاته مضحكة إلا أن قلبه طيب، هذا الجمل الذي يشتكي دون توقف سواء كان مثقلاً بالأحمال أم لا، يشتكي عند وقوفه وعند استلقائه، لكنه يمشي دائماً دون أكل أو شرب، إنه حيوان مناسب للظّروف المحيطة فقد خُلق خصيصاً للصّحراء، ولهذه البلاد المقفرة المتميّزة بالوحدة اللامتناهية....

إلا أننا إن اخترنا الجمل فسيلزمنا يومان للوصول إلى مكّة، ونحن في عجلة من أمرنا والطّريق غير آمن من سلب البدو ونهبهم.

أما بفضل حمير الحجاز الرّائعة فقد نستطيع إنجاز الرّحلة دفعة واحدة دون تغيير الدّابة حتى! لهذا استأجرنا الحمير.

لقد أصبحتُ مستعدّاً بشكل كامل؛ توضّأت حسب الطّقوس ولبست لباس الإحرام، وهو عبارة عن ملبس وحيد للحاج يقتصر على قطعة قماش غير مخيطة تحيط بالخصر. وهذا اللّباس مفروض على المؤمنين القادمين لزيارة مكّة للمرة الأولى، وحتى على سكّان مكّة الذين غادروها لأكثر من تسعة وثلاثين يوماً.

ها أنا ذا أركب حماري وأتجه إلى هناك، جذعي عريان ورأسي محلوق ومكشوف، وفي السّاعة الثّانية بعد الظّهر تحت الشّمس الحارقة. خشيتُ كثيراً من التّعرض للشّمس، وتذكرت وأسفاه التّوصيات المشدّدة لصديقي العجوز الحاج عبد الرّحمن، لكنني لم أستطع الأخذ بها.... أسررت إلى رفيقي الحاج «أكلي» بمخاوفي، فأجابني بعنف:

«ألست بين يدي الله... ماذا تخشى إذن... ؟»

* * *

قطعنا مسافة 16 كم تقريباً في سهل رملي، ثم لاحظنا ارتفاع الطّريق شيئاً فشيئاً، إلى أن دخلنا بين جبال الحجاز الجرداء التي ترى قواميعها أشبه ما تكون بفوهات البراكين الخامدة، تتتالى واحدة تلو الأخرى وتنتشر على شكل رتل طويل.

لقد أدّى المرور الدّوري للقوافل إلى تفتيت الصّخور وتمهيد الحواجز، فالطّريق المستوي يشبه تماماً مجرى نهر جاف مغطّى بالرّمل.

حلَّ الليل فجأة ولم يدُم الشّفق طويلاً، حتى أننا لم نحظَ بضوء القمر إلا عند السّاعة الثّانية صباحاً.

لكن مجموعات النّجوم تلمع في هذا البلد ببريق لا مثيل له، فهي تتلألأ وعددها لا يُحصى، وتنشر إنارة خفيفة باهتة وحزينة تسمح لنا بتمييز الأشياء المعتمة التي تحيط بنا والتي تبيَّن لي أنها أكداس من الصّخور السّوداء المتكلسة وأنقاض متراكمة بشكل عشوائي، وكأنها كانت تريد سدَّ الطّريق. اقتربنا، وفجأة ظهر لنا الشّق حيث يمتدّ الطّريق، ولما اجتزناه وجدنا من جديد حفرة دائرية سوداء كبيرة جداً على شكل تجويف عميق.



بدوي

من وقت لآخر ترى مركزاً تركياً يتوضّع في أعلى تلّة ويرسم في السّماء ظلّه الشّرير، حيث تلمع فوقه عينٌ حمراء هي عبارة عن مصباح باهت يعلن أنّنا مراقبون، وأن هناك رجالاً مسلحين جاهزين لأيّة حادثة.

تابعنا المسير وقلبنا منقبض، فمررنا بقوافل عديدة وعدد لا ينتهي من صفوف الجمال التي تجتاز بصمت الرّمال الكثيفة، ويقودها أشباح سود. لم نتبادل معهم أيّة تحية وأي كلمة سلام، وهذا مخالف للآداب الإسلامية.

يمرُّ خيالهم بجانبك فيلمسك ثم يبتعد بأقصى سرعة، أيديهم موضوعة بشكل غريزي على أسلحتهم، فهم دائماً متأهّبون للنّجاة من أي هجوم أو كمين....

* * *

وصلنا إلى حَدّة Hadda، الواقعة في منتصف الطّريق. أنزلنا المتاع من على ظهور الحمير وصلّينا فرض العشاء، ثم أعددنا مع بعضنا الطّعام المؤلف من بيض مقلي بسمن الغنم. أكلنا بصمت مع التائسين المرافقين لنا، وفي كل لحظة كان أحدهم ينهض ويقطع هذه الوجبة الفقيرة، ليطعم الحمير فيمدّ لها يده بقبضة من فول... وأيضاً ليراقب جيراننا في خان القوافل.

إنّ وجوههم لم تعجب التّائسين، وقد عدُّوهم على الأغلب من المشتبه بهم، وفجأة قاموا بتحميل الحمير بدل أن نرتاح بضع ساعات في حَدّة كما كان متفقاً عليه، وها نحن مجدّداً نمتطي ظهور الحمير ونُهرول في عتمة الليل.

إننا نقطع الآن مساحات واسعة من الرّمال وقد بدأ ضوء الفجر بالظّهور. لقد بدا شاحباً، وهو في الرّبع الأول بالكاد يلمع أكثر من النّجوم، لكنه يضيء الأشياء بشكل خيالي، فترتسم بجانبها أخيلة طويلة غريبة الشّكل.

ها نحن أولاء من جديد ننزل في وهدة من الوهاد العميقة التي لها شكل قمع مظلم محدود الأفق. أخذتُ غفوة صغيرة وبدأت أحلم.

* * *

أنا أدرك أنني أقف عند نقطة تحوُّل مهمة في حياتي؛ ماذا سأصبح غداً؟ أي استقبال ينتظرني؟ عند بزوغ النّهار سأخترق أسوار المدينة المحرَّمة. هل سأخرج منها حياً؟.... حياتي كلها تمرّ أمامي وكأنّها رؤى سريعة.

* * *

ذكريات تافهة من طفولتي تختلط مع أحلام حُبّ الشّباب، ثم جالت في ذهني الرّحلات والجولات المجنونة والبلاد التي قطعتها، كغرناطة والحمراء وطُليطلة بسورها القديم ومغيب الشّمس في إشبيلية فوق «بُرج الذّهب» Torre de Oro....

ثم مَالقة....، وطنجة،.... وضوء القمر في تلمسان، وألعاب الفروسية الكثيرة التي كنا نقوم بها في جنوبي الجزائر. ثم تذكّرت دمشق وبورصة وإسطنبول والقدس والقاهرة وأثينا.... وسواقي المياه المتدفّقة في ضواحي باريس، وأنهار فرنسا وحدائقها وأزهارها. ثم جاءت في خاطري ذكرى أكثر إيلاماً تتعلق بأهلي؛ أمي العجوز التي تدعو لي غالباً في المساء عندما تفكر بي....، وأيضاً ذكريات فرنسا، أصدقائي الذين ودَّعوني بحزن شديد واضعين في أذهانهم أنني قد ضعت إلى الأبد.

* * *

لكـن أجراس الحمير رنَّت في وسـط الليل غير مبالية وبجلجلـة حقيقيـة،.... امتلأ قلبـي بالأمـل، ورأيتُ طريـق العودة؛ رأيت فرحة الأعزاء الذين سـأعانقهم بشـدة بعد هـذه الانفعالات القوية.... مشـينا ومشـينا بلا توقّف مع هرولة الـدّواب، نحو الهدف الغامض، نحو المجهول....

توقفنا أخيراً في مكان لا أعلم اسمه - كنـت ما أزال أحلم - ولـم أفكر حتى بالسّؤال عن اسـمه. دون أن ينطق أحد بكلمة واحدة، التفّ الجميع في لباسـهم الصّوفي وناموا كأنهم كتلٌ بشرية.

كنـت أرتجف مـن البرد وأنا أرقد علـى الحصيرة بلا ملابس تقريبـاً، لم أجرؤ على الـكلام ولا علـى الحراك كـي أدع مرافقي المنهك من التّعب يرتـاح، وأنا لا أريد لفت انتباه أحد.

بقيت أرتجف طويلاً، تخدّرت أفكاري من البرد القارس في ليالي الشّرق عند ساعة الإشعاع، بردٌ قارس على الأقل بالنّسبة لي فلا شيء يحميني....

وأخيراً استيقظنا، أدّينا صـلاة قصيرة ثم انطلقنا.

* * *

الإقامة في مكّة

عنـد ظهور ضوء النّهار اجتزنا بوّابة المدينة المقدّسـة. إنها بوّابة مؤلفة من عمودين يشبهان أعمدة بوابة مزرعة، ويبعدان عن بعضهما بضعة أمتار.

قيـل إن هنا أيضاً آخر حدٍّ للصّيـد، فبعد قطع هذه المنطقة يحرّم قتل حيوان مفترس أو حتى قتل عصفور مهما يكن نوعه.

وبالفعل مع طلوع النّهار، مررنا بأسـراب لا تحصى من طيور الحجل ومستعمرات كاملـة من عنادليب الصّحراء، تهرب مهرولـة أمامنا دون أن تتنازل وتطير، فقد اعتادت على النّاس الذين أصبحوا غير مؤذين بالنّسبة لها. ثم أحاطت بنا مجموعات طائرة من الحمام وكأنها غيوم.

كانت تطير حولنا بأعداد هائلة وتقف عند أقدام دوابنا بشكل أليف جداً.

رأيـت عـدداً محدوداً من فراخ السّـمان تمشـي على الـدّروب وكأنها تريـد أن يتمّ دهسها، فأخذتُ أرتجف خشية ارتكاب جريمة رغماً عني بحق هذه الطّيور.

فـي الحقيقة، هذه الحمائم مصدر احترام كبير لغالبية سـكان مكّـة. فإن دهـس أحد هذه الطّيور التي تعتبر تقريباً مقدّسة، والتي يُعتنى بها في الجامع الكبير فيقدّم إليها بسخاء الذّرة والسّمسم، إن سحقها سيُعدّ تدنيساً حقيقياً للمقدّسات، وسيولّد أفظع انطباع لدى مرافقي.

فجـأة عنـد مفتـرق طريـق، دخلنا إلـى المدينة المقدّسـة. لا شـيء يجعلـك تتوقع مـدى قربهـا، فهي تختبـئ بين جبلين قريبين جـداً من بعضهما. وعندما تجتاز الشّـارع

الأولى تعرف أنك قد وصلت، ولا يوجد منظر شامل للمكان. تتعاقب الشّوارع وكلها متشابهة، حتى تصل إلى الجامع الكبير المستقرّ في أخفض مكان في المدينة مختبئاً عن الأنظار، وكأنه بيضة وسط عش.

مباشرة بعد أن استقبلنا مطوّفنا[1] عبد الرّحمن بوشناق Abderraman Bou Chenak، دخلنا ضمن الأسوار المقدّسة للحرم، وهو الجامع الأكبر والأوحد لمكّة كلها.

ها هي ذي الكعبة أمامنا بهيئتها الملكية مرتدية كساءهاالأسود الثّمين.

ليست الكعبة كما نظنّ عموماً قبر النّبي محمّد ﷺ، فإن قبره موجود في المدينة. إنها بالنّسبة للمسلمين بيت الله الحرام، وهي مركز الكون. وما إن وصلت حتى أسرع مطوّفي يقول لي:

«أخي لا تظنّ أنه عليك عبادة هذا الحجر أو الحرير أو حتى الذّهب الذي يغطيها، هذا ليس المقصود إنما عليك أن تعرف أنك في مركز الكون. جميع صلوات المسلمين في كل أنحاء العالم تتجّه إلى هنا لترتفع مباشرة إلى السّماء. إنك هنا أقرب ما تكون إلى الله، هذا كل شيء».

اقتربت السّاعة من السّادسة صباحاً. هناك بريقٌ زهري يضفي لوناً أخاذاً على الأشياء فيعطيها مسحة الصّباح النّضرة. جلسنا بخشوع على بلاط المسجد، وبعد لحظة تأمل، بدأنا أول صلاة....

يبدو الجامع ممتلئاً منذ الآن، عددٌ كبير من المؤمنين يطوفون حول الكعبة، يمشون بأرجلهم العارية على البلاط الرّخامي بمنتهى الأدب دون أن يصدروا أيّ صوت وكأنهم أشباح بيضاء.

---

(1) كتب المؤلف: تعني كلمة المطوّف باللغة العربية «مَن يأخذك في جولة»، وقد أطلق الاسم في الحجاز على موظفين دينيين خاصين مهمتهم قيادة النّاس في الطّواف حول الكعبة، كما يقومون بدور المترجمين والمراسلين لأبناء بلدهم الذين يستقبلونهم وينزلونهم في أماكن تتفاوت حسب حالتهم والنّقود التي يدفعونها. هناك مطوّفون لكل البلاد الإسلامية، فنجد مطوّفين للمغاربة والسّوريين والأتراك والمصريين، ولسكان شرق آسيا....



الحجر الأسـود

أمسـك بيـدي أحمد بوشـناق، ابن عم مطوِّفـي، وجعلني أقوم بسـبعة أشـواط من الطّواف حول الكعبة، وأنا أتلو وراءه وبصوت عالٍ، أدعية الشّـعيرة التي أقوم بها. هذا هو طقس الطّواف.

ثـم أخذنـي عند إحدى زوايـا الكعبة لأقبّل الحجر الأسـود المشـهور، هذا الحجر المرفوع على علوّ شـخص، ضمن إطار فضي مُصـمت بيضوي الشّـكل قطره 80 سـم تقريباً.

عندما قبّلتُه لم أشـعر ببرودته كما هو حال الرّخام، بالأحرى تشـمّ فيه رائحة العنبر، وتشعر بطعم حجر البارود. يقال إنّه نيزك، أما أنا فأعتقد أنه حجر صوّان.

كمـا يقتضي العُرف أمسـكت بالإطار الفضّـي براحتي وقبلت الحجر الأسـود، ثم خرجنـا مـن الجامع وقد وضعت لباس إحرامي على كتفي حسـب المذهب المالكي، وانطلقنا إلى السّعي.

لإنجاز السّعي عليك أن تقطع سبعة أشواط وبخطوات تتراوح بين الهرولة والمشي السّريع، المسـافة التي تفصل بين رواق مقدَّس اسمه الصّفا وآخر مماثل له اسمه المروة،

وتبلغ المسـافة بينهما 500 م، أيّ بالإجمال يجب قطع 7 كم بخطوات سـريعة، ونحن نتلو مردّدين الصّلوات والأدعية وراء المطوِّف.

في كل مرّة نصل فيها عند نقطة الصّفا أو المروة نتوقف للحظة على إحدى درجات الصّـرح المربعـة، لنتلـو دعـاءً. وهذا يتيـح لنا المجـال لأنّ نلتقط أنفاسـنا، ثـم نعاود الكرّة....

إنني الآن في حالة تنويم مغناطيسـي، تجعلني لا أشـعر لا بالتّعب ولا بالجوع ولا حتى بالعطش. لكن عندما أنهينا كل شـيء وقمت بحلق رأسـي بشـكل رمزي عند الصّدغ، عُدنا إلـى الجامع المقدَّس، فشـربت دفعـة واحدة قصعة المـاء التي قدّمها إليّ أحـد المحتفلين بالعمل الذي أنجزناه، وألحقتها بالثّانية مباشرة، وقد شربتُها بنفس النّهم.

عندها انفرجت أسارير أحمد بوشـاق، فقد اجتزت دون أدنى شك الاختبار النّهائي الذي يثبت بالنّسبة لهم صفاء قلبي وسلامة نيتي.

شربتُ بفرح المياه المقدَّسـة لنبع زمزم، وطلبتُ شربها مرة ثانية؛ وحسـب عقيدتهم لا يمكـن لأيّ مسـيحي أن يشـرب هذا المـاء دون أن ينعصر حلقه فيشـعر بالاختناق. وإضافة إلى ذلك، فإنّ أي رجل بقلب غير نقي سيجد هذا الماء كريهاً ومرّاً.

إذن لقد أتممتُ بنجاح تام ودون أن أعلم الاختبارَ النّهائي، والآن تمّ استقبالي كأخ حقيقي في ضيافة عبد الرّحمن بوشـاق مطوِّف المغاربة.

* * *

إنها السّـاعة العاشـرة صباحاً؛ قدموا لي بعض قطع اللحم المفروم والبطاطا وقليلاً من السّـمك وبعض الفاكهة: عنب الطّائف اللذيذ والبطيخ السّكري؛ إلا أن حلقي كان متصلّبـاً لا يمكـن لشـيء أن يمرَّ فيـه، فطلب منـي مضيفي أن أرتاح حتـى يحين موعد صلاة السّاعة الثّالثة.

بعـد أن بقيـت لوحدي أنا وتأملاتـي، أخذت أفكر بحياتي، وفرنسـا، وبهذه الرّحلة العجيبة إلى هذه المدينة الغامضة، حيث أشعر أن معجزة ما تسيّرني. أحداث الليلة تعود

أمام مخيلتي، رأيت التراب مجدّداً، وتخيّلات ما قبل النّوم، والقلق الذي اعتراني من المجهول عندما اقتربنا من الأسوار المهيبة. ورغم تعبي الشّديد فقد جافاني النّوم....

جافاني النّوم لثلاث ليالٍ وثلاثة أيام عشت خلالها انطباعات عديدة لا يمكن شرحها. إنني أذكر تفاصيل دقيقة جداً عن هذه الأيام التي مضت، بعيداً عن عالم الأحياء، ويمكن أن نقول حتى في هذه المدينة غير العادية، إذ أشعر وكأنني انسلخت عن الإطار الطّبيعي للحياة، لأنعزل في نوم غامض....

* * *

عندما تنخفض حرارة النّهار المنهكة، وتنخفض كالسّحر عند ساعات الغروب الجميلة لشمس الشّرق، ساعات الاسترخاء والشّعور بالرّاحة المنعشة والسّكينة الهادئة، أكون عندها بمنتهى الفرح، وذلك عندما أذهب لأحلم عند الجامع الكبير.

أجلس على الأرض عند الدّرجات الرّخامية، وأستمع وأنا سعيد لإنشاد المؤذنين وهم ينادون على الصّلاة فيخرج صوتهم من المآذن الأربع لزوايا الحرم، إنهم ينشدون وهم يدورون حول الشّرفة الحجرية التي تتوّج الأبراج الصّغيرة الأنيقة، فيعلو صوتهم تارة وينخفض أخرى حسب اتجاه الصّوت.

كانت أصواتهم تتوافق مرة بنغم واحد ومرة أخرى تكون متعاقبة، حتى إنه كان يتخلّلها بكاء حقيقي، من الممكن القول إنهم كانوا يبكون في هدوء المساء.

لا يمكن لبشر أن يحلم بإنجاز لحن بهذه الرّقة وهذا التّناغم والعذوبة.

أيّ تنميق مدهش!

إن الأفق مغلق بشكل شبه تام بالجبال العالية التي تحاصر المدينة، وتنزل دعائمها بصورة تبدو وكأن الذّهب يسيل منها.

يبدو الجامع الصّغير لجبل أبي قبيس وكأنه مرتفعٌ من الذّهب الأشقر على الأحجار الصّهباء غير المصقولة التي تحيط به.

التّزيين النّاعم لقبب الجامع وقناطره تمتدّ حتى البلاط فتزينه بالذّهب اللامع والرّخام والخزف الملوّن، فتلمع هذه الصّروح المقدّسة. أما الكعبة فتبدو تحت كسائها الأسود المصنوع من الجوخ الأكثر عظمة والأشد قدسية وسط هذا التّطوع.

وقف الجميع داخل الأسوار المقدّسة، ويبدأ الإمام صلاة العشاء.

يهرع إلى الصّلاة عشرون ألف مؤمن يصطفون بطريقة منظمة، وهم ساكنون كأنهم أصنام ثابتة.

«بسم الله»، قال الإمام..

للسّكون هيبة عظيمة، والصّمت الخاص بالعبادة يملأ القلوب.

«الله أكبر»، تنحني الجباه.

«الله أكبر»، يردّد الجميع في آن معاً وبصوت منخفض وراء الإمام. إلا أنّ عددهم كان كبيراً لدرجة أن الكلمات التي يلفظونها بصوت منخفض تجتمع وكأنّها صفيرٌ مدهش يهتز طويلاً ويتوهّج من الإيمان، وينحني له هذا الجمع من المصلّين.

* * *

وتستمرّ الصّلاة - جميع الجباه تلمس الأرض مرتين كإشارة للطّاعة والتّعبّد - وببطء جليل، مما يزيدهم هيبة أيضاً، وتتالى الرّكعات حتى نصل إلى السّلام الأخير الذي يُختم به العمل.

الصّلاة قد انتهت، إلا أن النّشوة مستمرّة وبصمت يبقى المصلون جالسين على الأرض يحلمون ويتلون التّسابيح على سبحاتهم العاجية الطّويلة التي يحملونها بين أصابعهم.

* * *

إنّ للذّهب اللامع في كل مكان بريقاً زهرياً ذا نعومة لا متناهية في التّعاقب تحيط كل شيء بشعاع دافئ؛ ثم يصبح البريق بنفسجياً، إلى أن يتحول إلى الرّمادي الغامق. حلّ الظّلام ببطء، وأسدل خماره الأسود شيئاً فشيئاً على الأشياء الغامضة.

اشتدّ الظّلام وأرى أشباحاً بيضاء تمشي بأدب كأنها ظلال على الدّرجات، لقد قاموا وعادوا إلى دورانهم الصّامت حول الكعبة التي سيختفي غطاؤها المخملي قريباً في هذه العتمة.

* * *

آلاف الأضواء تلمع الآن في الجامع المقدَّس فتخدش العتمة بشرارات لامعة، وسحر المكان قد انطفأ. بدأت المحادثات والحركة، ثم خرج الجميع، تزايد الذّهاب والإياب وفي النّهاية انصرف الجميع.

علينا أن نعود، فنصعد إلى شرفة منزلنا ونحضر لليلتنا، ثم نقوم بآخر صلاة لهذه الليلة. بما أنني أتممت كل أموري أستطيع الآن أن أعود لأحلامي التي انقطعت، فإن السّكون مطبق والليل صافٍ وهادئ تحت السّماء المرصعة بالنّجوم.

* * *

جميع منازل مكّة مقامة فوق شرفات، ومحاطة بحواف من القرميد منسقة بشكل مربّعات فتشبه بذلك رقعة الدّاما، ولها مشابك ممّا يسمح بمرور الهواء دون أن ينكشف المرء على جيرانه.

عندما يأتي المساء، يصعد الجميع ليناموا على هذه الشّرفات خلال عدة شهور من السّنة، دون أن يغيّروا عادتهم تلك.

إنها عبارة عن شقق حقيقية لكن دون سقف، وهي مقسّمة بحواجز صغيرة كي يتم فصل العائلات وفصل النّساء والخدم.

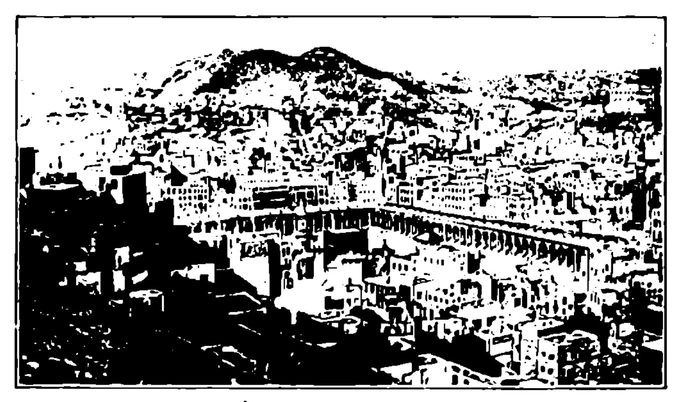
في المنازل الكبيرة تكون الشّرفات على شكل مدرّجات لجعل مسألة الفصل اكثر راحة وأكثر حشمة. إنّه المكان الأكثر متعة في المنزل.

تُستخدم الحصر للنّوم، وتكون اللّيالي صافية وصحوة فلا يحتاج المرء للغطاء؛ نلبس فقط اللباس الخفيف ذاته الذي نرتديه خلال النّهار، عباءة من الموسلين والكتان،

يتمّ جلبها من ترابزون Trébizonde، وقفطاناً من سورات Surah أو الباتيستة القطنية مستورداً من الهند.

* * *

سريعاً ما كونت صداقات عديدة. أهمّها عبد الوهاب[1] Abd el Wahad مغربي الأصل، الذي أنشأ مصبغة ومدبغة في حي المشرفة Moucharafa وهو متزوّج من هندية وأب لثلاثة أطفال. إنه يكنُّ لي مودّة قوية وصادقة، وهو من يرافقني خلال جولاتي الطّويلة في البلدة؛ هو من قادني إلى مِنى بسبب تعذّر ذهاب الحاج «أكلي» الذي حجزه المرض في المنزل، وبفضله استطعت زيارة أنحاء البلدة وضواحيها؛ وبصحبته استطعت التقاط الصّور الفوتوغرافية بواسطة كاميرا ذات منظار مزدوج photo-jumelle خبأتها بمهارة داخل سجادة الصّلاة التي أحملها على كتفي، مثل جميع سكان مكّة تقريباً.



مكّة، صورة ملتقطة من جبل أبي قُبيس

(1) يكتب كورتيلمون الاسم بالدّال Wahad، لكن يبدو أنّ هذا سبق قلم منه لا أكثر.

وفي صباح أحد الأيام، صعدنا سوية على جبل أبي قُبيس، وهو جبل شديد الانحدار يهيمن على المدينة وعلى قمته شُيّدت قبّة صغيرة أنيقة.

يقوم قليل من الحجّاج بتأدية فروض تعبدية هناك، ويوفون نذورهم بشكل خاص.

أما أنا فإنني أتمنّى أن آخذ من هذه النّقطة الغالية لقطة شاملة للمدينة المقدّسة.

هذه هي المرة الأولى التي أحمل فيها الكاميرا هنا. والخطر يبدو مضاعفاً في ذلك اليوم. على سبيل المثال: تسلّق الجبل دون الذّهاب إلى القبّة والصّلاة فيها أمر خطر بشكل كافٍ للفت انتباه حراس هذا المكان المقدّس، المترّصدين دائما لأبسط شيء ممكن أن يجلبه الزّوار. من جهة أخرى يجب لكي أصلّي أن أبسط سجادة الصّلاة حيث أخبئ كاميرتي، وليس هناك مكان آخر أخبئها فيه، فأنا ألبس اللّباس الخفيف والقفطان الطّويل الخالي من الجيوب.

في الحزام؟ لا يمكن مجرد التّفكير بذلك. من المستحيل إذن القيام بأي زيارة أو عبادة في قبّة جبل أبي قبيس. تسلقنا ببطء الجانب المنحدر دون أن ننظر إلى الوراء، كأناس ورعين لا شيء يلهيهم عن أفكارهم الدّينية، ثم وصلنا عند أسفل الصّرح، وجلسنا عنده على الأرض لنلتقط أنفاسنا.

وأيّ منظر رأينا، المدينة بكاملها مبسوطة تحت أقدامنا. الجو العام صافٍ لدرجة أنه يمكننا ملاحظة بوضوح أيّ شيء مهما كان بسيطاً في الجامع الكبير حيث يوجد منذ الآن بعض المصلين.

حول الكعبة الضّخمة السّوداء تطوف بعض الأشباح البيضاء كالعادة.

لكنني أعترف أنني لم أستمرّ طويلاً في تأمّلاتي! وبسرعة انتقلت إلى الفعل، واستخدمت الكاميرا لالتقاط منظر شامل: كراك! منظر أوّلي؛ كراك! منظر ثانٍ؛ كراك كراك ثلاثة، أربعة، خمسة.... لقد تأثرتُ كثيراً، وكأنني أنجزت شيئاً خارقاً. بقيت دقيقة مذهولاً ثم وقفت قائلاً لعبد الوهاب: «فلنذهب»، ودون أن ننبس ببنت شفة غادرنا هذه الأماكن الخطرة.

نجونـا....! ألـم يـسـمعونا عندمـا وصلنـا؟ أم كان الحرّاس متواجديـن في الجانب الآخر، عند البوّابة؟ شـئ غامض؛ لكن في النّهاية لم يرنا أحد ولم يبقَ علينا إلا النّزول بسرعة....

عند أول مفترق للدّرب اعتقدت أنه يجب قطع الصّمت وإعطاء تفسير لدليلي....

«أتعلم يا عبد الوهاب، نظري سيئ جداً ولا أرى بشكل واضح عن بعد وهذا الجهاز الصّغيـر يصحّح نظري، عندي عين ترى لبعيـد جداً، وأخرى ترى عن قرب جداً، بهذا الجهاز أرى بالعينين بنفس الوقت.

أجـاب عبـد الوهاب: «نعـم أعلم، بهـذه الآلات يمكنـنـا التقاط صـور فوتوغرافية للبلاد، رأيتُ مثيلاتها سابقاً في طنجة....

«هل ارتكبت خطيئة يا أخي؟ في هذه الحالة سأحطّم الآلة فوراً».

«لا يـا أخـي، بما أنـك لا تصوِّر الوجوه.... مع ذلك كن شـديد الحـذر كي لا يراك أحد، سـيعدّونك جاسوساً سياسـياً وسـيتمّ القضاء علينا بلا رحمة.... لقد حصـل هذا عدة مرّات في أوقات الحج».

* * *

أدركـتُ الآن حقيقة العمل المتهور والجنوني الذي أنـوي القيام به، فأنا أريد جمع وثائق كي أدوّن كتاباً عن مكّة وأدعمه بالصّـور المناسبة.

الحاج «أكلي» المسـكين والجاهـل بأصول التّصوير الفوتوغرافـي، ظنَّ أنه يمكننا التقاط بعض الصّور بطريقة سرِّية في الأحياء المعزولة، من نوافذ بيوت بعض أصدقائه، أو حتى من على بعض الشّرفات، كان يظنّ أنّ ذلك كافٍ.

جعلنـي أحمـل معي آلتـي ذات قياس 18 X 13 سـم وبعض الألواح التـي خبّأناها بمهارة بين الكتب العربية، ويمكن أن يختلط شـكلها بشـكل الألواح وحجرة الكاميرا المظلمة، إلّا أن فكرة نصب آلة تصوير فوتوغرافي أمام قصر الشّريف الأكبر المحروس

بشـدة من الشّرطة التّركية، أو في الشّوارع والأسـواق والمحلّات أو أمام منزل الباشا، وإن حاولنا إخفاءها، سيكون جنوناً واضحاً وطريقة مباشرة للانتحار.

إنّ الكاميـرا ذات المنظـار المـزدوج[1] فقـط هي التـي أتاحت لـي الفرصة لالتقاط بعض الصّور الفوتوغرافية للمدينة المقدّسة التي أزيّن بها مجلدي دون أن أُعاقب.

تذكرت الاستعدادات التي قمت بها عند انطلاقي من باريس. لقد حالفني الحظ إذ أخذت بنصيحة صديق قال لي: «خذ معك في كل الأحوال كاميرا ذات منظار مزدوج».

كم سخرت من هذا الاقتراح! لكن ماذا سيكون عليه حالي لو أنني تشبّثت بفرضيتي الخاطئة؟

ماذا لو أن هذا الصّديق لم يأخذ بيدي ويقدني إلى شـارع الأوبرا، عند السّـيد ريشار M. Richard اللطيف، صاحب المتجر العام للتّصوير الفوتوغرافي؟ ماذا لو أن السّيد ريشـار لم يقنعني بقوة بشـراء كاميـرا كاربنتييـه ذات منظار مـزدوج phpto-jumelle Carpentier؟ مـن المؤكـد أنني كنت سـأشـعر اليوم بندم شـديد، وأنني كنت سـأرجع بخُفيّ حُنين.

---

(1) نوع من آلات التّصوير الفرنسيّة، طوّرها وصنعها جول كاربنتيه Jules Carpentier وهي تبدو من حيث الشّكل كالمنظار المقرّب بعدستين، تستخدم الواحدة للرّؤية والثّانية لالتقاط الصّورة. وهي طبعاً صغيرة الجم مقارنة بالكاميرات الاحترافيّة ذات اللّوح الحسّاس قياس 13 X 18 إذ تستخدم ألواحاً من مقياس 4.5 X 6 سم أو 6.5 X 9 سم، ولكن ذلك يعني أنّ جودة صورها أدنى من الكاميرا القياسيّة الكبيرة، لكنها مثاليّة في حالة المؤلّف. وقد وضعتُ صورة لنموذج عنها في مقدّمتي.



منظر عام لمكّة

كـان الطّريق الـذي سلكناه للنّزول متعرّجاً من جانـب واحد ويطلّ أيضاً على المدينة.

أصبحتُ مطمئناً صافي الذّهن ويمكنني أن أتأمل كل شيء، فلم يعد هناك ما أخشاه. كنا شخصين غير مؤذيين يتنزهان عائدين من جبل أبي قبيس.

تظهـر طبوغرافية المدينـة بأكملها بوضوح أمام عيني، وقـد أدركتُ أهميتها. كانت الشّرفات تتدرج أمام أقدامنا وتعتلي الشّقق دون أن تحتاج إلى سقف.

إنّ الصّور التي حصلتّ عليها لهذه الرّحلة الخطرة كانت على خمس لوحات، وهي أول صور تلتقط للمدينة بشـكل متكامل، إنها أكثر بلاغة من أي وصف سـابق، وتتيح المجال لأن ندرك أهمية هذه العاصمة الدّينية للإسلام.

أقدّر عدد سـكان مكّة الحضريين بحوالي 100.000 نسـمة، يشكل الهنود غالبيتهم (75 بالمئة).

وكما ذكرت سابقاً، المدينة محصورة بين جبلين، داخل وادٍ ضيق وطويل يمتد من الشّمال الشّرقي إلى الجنوب الغربي.

هناك شارع رئيسي واحد يقطعها وفيه بعض التّعرّجات، ثم تأتي الشّوارع الفرعية لتلتحم به بشكل إجباري في معظمها.

* * *

لدي صديق غريب الأطوار ذو شكل طريف. إنه حمّال جزائري أخفق في العودة إلى بلاده، والله أعلم كيف حصل له هذا. إنه يعيش في مكّة كدرويش، لذلك لُقّب بالدّرويش الجزائري.

إنه يمضي كل وقته في الجامع الكبير، يصلّي ويتأمل. وعندما يحين وقت الوجبات يصحبه أصدقاؤه إلى منازلهم، فيتباركون به. يجلس دون تكلّف على موائدهم ويأكل بمنتهى الزُّهد. وجهه رقيق ظريف ومظهره خامل، إلا أنه من وقت لآخر، وبسبب وجودنا، تستحوذ عليه ذكريات الوطن فتخرج منه تنهيدة ويقول: «أليس بلدنا جميلاً؟ آه، كم أرغب في رؤيته».

إنه يغمرني بلطفه ويكون حاضراً عند قيامي بفروضي الدّينية فيساعدني بحكم خبرته. وأستطيع التّكلم معه باللهجة الجزائرية، وهذا ما يفرحه كثيراً.

* * *

إنني أتمشّى في الشّوارع والأسواق بكل ثقة، وغالباً ما يكون دليلي عبد الوهاب، وفي بعض الأوقات الدّرويش أو أحمد بوشناق. وبما أنهم هم الذين يقودونني فلم يكن عليّ سوى تبادل بعض التّحيات وبعض الإيماءات المهذبة، وأن أتجرّع بطواعية العدد الهائل من أكواب الشّاي المقدمة في كل مكان وفي كل الظّروف، عند الأصدقاء، وعند الباعة حيث كنت أتسوّق، وفي كل مكان.

كل مهنة هنا محصورة ضمن حيّ من الأحياء، كما هو الحال في جميع البلدان العربية، وكل يوم هناك اكتشاف جديد.

يوماً عنـد تجار القمـاش، بعد مداولات لا تنتهي ومناقشـات غير محـدودة، وبعد جهد جهيد أشتري في النّهاية حزاماً وعمامة وقفطاناً أو قطعة قماش.

وفـي اليـوم التّالـي نتجّـه إلى سـوق العطور، يجب أن أشـتري خشـب الـورد لصديقي الجزائري العزيز عبد الرّحمن، وعليّ أيضاً شراء زيت الصّندل، والمسك لأصـدقاء آخرين.

في يوم آخر، كانت الجولة في حيّ السّمكريين لنحصل على مؤونتنا من مياه زمزم. يوجد في هذا الحيّ عدد غير محدود من الحرفيين الذين يعملون بلا توقّف في صناعة قواريـر مـن التّنك بمختلف الأشـكال والأحجام، وهي مخصّصة لاسـتيعاب السّـائل العجيـب. إنهـم يصنعـون ويلحّمون ويعبئون، ثـم يبيعون وكل ذلك بنفســهم، في كل دكان مـن هـذه الدّكاكين، هذه الأشـياء الثّمينة التي سـيتخاطفونها منّا عنـد عودتنا إلى الدّيار.... إن عدنا سالمين، بمشـيئة الله، وهذا ما نردّده في كل لحظة.

* * *

يلزمنا صبر أكبر عند شراء الأشـياء المصوغة من الذّهب والفضّة. يشـكّل صيّاغ مكّة اتحـاداً مهماً جداً تحت إشـراف وإدارة الشّـيخ الذي يعمل هو أيضـاً في هذا المجال، وهذا هو الوضع في مختلف مجالات المجتمع.

إنهم عمّال ماهرون جداً، يصنعون مصوغات سـلكية جميلة وسلاسـل من الذّهب والفضّة تحتاج إلى كثير من الدّقة والصّبر.

يصنعـون أيضاً كميات مـن الجَنبيّات *djambias*، وهي خناجـر يحملها العرب في أحزمتهم.

معظـم هـذه الخناجر ذات مقبض وغمد مصنوع من الفضّـة المذهبة، وهي غالباً ما تشـكّل كل ثروة البـدوي، ويحصـل من خلالهـا على تجارة رابحـة. إن العرب يبيعون ويشترون هذه الأسلحة التي تشكل بالنّسبة لهم كل مدخراتهم، بحسـب كون السّنوات جيدة أو سيئة.

ومن غير المسموح القيام بأي بيع في مجال الصّاغة دون الرّجوع للشّيخ.

نبـدأ بالنّقـاش مع البائع حول سـعر الدّرهـم drachme (تقريبـاً 3 غرامات)، وهي وحدة هذه المبادلات، ثم نذهب عند الشّيخ، ومن الممكن أن يكون في الطّرف الآخر من المدينة بالنّسبة لمكان انعقاد الصّفقة.

هـذا ما حصل معي. كنت قد لاحظت سلسـلة من الفضّـة المذهبة على رفوف أحد بائعي الأشياء العتيقة، في سوق موجود في شارع متاخم لقصر الشّريف الكبير.

كانت السّـاعة حوالي العاشرة صباحاً والبيع قد ابتدأ. نصحني عبد الوهاب بالعودة خلال النّهار للحصول على سـعر أفضل.

عندها أصررت، فأعاد رغماً عنه المداولات، وكان يرى أنّ ثمن القطعة باهظ جداً، وأخذ يصرخ.

رجوته بأن يشتري لي القطعة مهما كان ثمنها، فشعر بالإهانة الشّديدة.

رأى أنـه سـيبدو كمغفـل، وهذا فـوق طاقته، فلنعد بعد قليل. توسّـلت إليـه مجدّداً فرضخ لي، وأعاد المداولات من جديد مع العجوز الدّرداء التي تحتجز الجوهرة.

كانت محاطة بالسّماسرة المهرّبين الذين يبالغون في مديح روعة السّلسلة. لم ينبس عبد الوهاب بأيّة كلمة وهو يشعر أنهم يريدون استغلالنا، حتى أنّه ظهرت عليه ملامح الحزن فأشفقت عليه، وأعلنت أنني لم أعد راغباً بالقطعة مهما كان ثمنها، وذهبنا.

لحقـوا بنـا بالطّبع، وفـي النّهاية في شـارع صغير منعزل أجبرت عبـد الوهاب على الموافقة. اتفقنا على سـعر الدّرهم وانطلقنا لرؤية الشّـيخ. مشـينا ومشـينا دون توقف، مررنا بحارات صغيرة متداخلة، لعمري، لا بدّ أننا قطعنا نصف المدينة.

وصلنا أخيراً. وجدنا الشّـيخ أمام محلّه يجلس مقرفصاً على كرسي، ويبدو منهمكاً جداً في حلّ الزّردات الكبيرة للسّلسلة التي يقوم بتصنيعها.

شـرح له عبـد الوهاب مطلبنا بأن يزن قطعـة الحليّ ويوافق علـى الصّفقة التي نريد إبرامها.

استعلم عن سعر الدّرهم، فابتسم بخبث وهنأ البائع، وزن القطعة بكفه وتفحص العمل ثم نطق ببضع كلمات: «طيّب، سأزنها بعد قليل»، ثم عاد إلى عمله الذي قطعناه بمجيئنا. انتظرنا بصبر وبهدوء تام. كان عليه قبل أن يهتم بأمرنا أن ينهي عملاً وقع على عاتقه بين بائع في المدينة وبدوي من الرُّحّل كان قد أوصى البائع بصنع خنجر من نوع خاص، لكنه لم يعجبه. وبعد مضي ربع ساعة من النّقاشات الحادة، والكلّ يتحدّث بوقت واحد ممّا يزيد الضّوضاء، نطق الشّيخ بالحكم؛ أمر البائع بتغيير شكل الخنجر حسب رغبة البدوي.

جاء دورنا، فأبعد الشّيخ المسنّ زردات السّلسلة التي يعمل عليها ليضع ميزانه ثم أخرج الأوزان من الخزانة.

إنها أوزان غريبة جداً! حبات فول وسبائك صغيرة من الرّصاص ونوى تمر وقطع صغيرة من العنبر؛ مجموعة مضحكة من الأشياء الزّهيدة، والتي يعلم وزنها جيداً على الأرجح، فقد أعطانا بالأرقام ودون أي تردّد وزن القطعة بالدّرهم. سجل الرّقم والسّعر المتفق عليه ثم قام بالعملية الحسابية على ورقة صغيرة مدموغة بختمه ثم أعطانا إياها. انتهينا، لم يعد علينا سوى شكره. سلّمنا عليه وصافحناه قائلين «السّلام عليكم». أجاب: «وعليكم السّلام». ثم عدنا إلى سوق الأشياء العتيقة في الطّرف الآخر من المدينة.

في الواقع علينا العودة إلى نقطة الانطلاق كي نحاسب البائع. وقبل كل شيء علينا البحث عن صرّاف كي نحصل على نقود. ناقشنا معه سعر التّبادل فوجدناه بخساً جداً فأعدنا البحث عن آخر، وحصلت في النّهاية على السّلسلة عند السّاعة الواحدة بعد الظّهر. سلسلة بستة فرنكات وخمسين فلساً. رغبت في الحصول على قطع مماثلة كي أهديها لأصدقائي في فرنسا، لكن أيقنت أنه عليّ تكريس عدّة أيام لهكذا مداولات.

في شارع متاخم للجامع الكبير من جهة الصّفا يوجد قصر الباشا التّركي والي مكّة، والحاكم السّياسي للمدينة المقدّسة ومنطقة الحجاز، وبالقرب منه توجد المطبعة الوطنية لمكّة، حيث يتمّ في الظّروف العادية نشر كتب الدّين والقانون والتّاريخ الموافَق عليها من قبل رجال الدّين.

عندما مررت بهذه المنشأة بصحبة الدّرويش وقفتُ مشدوهاً. كانت الآلات عاطلة عن العمل، وهذا حالها خلال عدة شهور في السّنة، إلا أنه انتابني شعور أنني أمام قوة كبيرة للمستقبل.

من يعلم ماذا ستطبع هذه الكتب في المستقبل، عند قيام الحرب المقدّسة إن اشتعلت في يوم ما! ستنفجر وقتها الدّعوات الاجتماعية وستمتدّ في جميع أنحاء العالم مطالبة المستعمر[1] بانتشار وتحرير الإسلام.

هل ستظلّ هذه الأعداد الكبيرة خانعة للقوى العظمى؟ ألن يستيقظ هذا الجنس البشري الأصيل من سباته القديم؟

أرجو أن تتحقق أمنيتي لكن ببطء، حيث أن الصّحوة ستكون علينا قاسية جداً إن حصلت بشكل مفاجئ وعنيف.

* * *

توجد منافسة جدّية بين الهنود على هذه الصّناعة المحلّية. فهناك أعداد غير محدودة من المؤلفات في مختلف المجالات، كعلوم الدّين والتّاريخ القديم والطّب والسّحر وتفسير الأحلام، إلخ... تأتي سنوياً من بلاد الهند وتنتشر بكثرة في البلاد الإسلامية.

هناك حركة فكرية واضحة المعالم وهذا يعود إلى حرّية نسبية للطّباعة والتي كانت منذ وقت قصير محدودة جداً.

* * *

أقمت والحاج «أكلي» في منزل مطوّفنا عبد الرّحمن بو شناق الذي يبعد خمسين متراً فقط عن الجامع الكبير. يعاني مضيفنا بشدة من معدته، ممّا يسبّب له قلة النّوم والدّوار والإقياء، ولا ينقصه شيء المسكين. وبما أنني طبيب دون معرفتي بذلك (فإنّ جميع الأوروبيين بالنّسبة للعرب أطباء) فقد طلبوا مني ملازمته. وكي لا أبقى مكتوف

---

(1) يقصد المستعمر الأوروبي بالطبع، وهذا ما يتّضح من كلامه أدناه.

اليدين، وصفت له دواء مقيّئاً جلبته من صيدليتي الخاصة بالسّفر، وجعلته يشرب بعد التّقيؤ مياهاً فاترة مضافاً إليها بيكربونات الصّودا. هذه الوصفة فعّالة لغسيل المعدة؛ أمّا لقلة النّوم، فقد قمت بإعطائه بضع قطرات من صبغ الأفيون المخلوط بماء وسكر. وللحمية وصفت له حصرياً الدّجاج المسلوق مع العنب. وكمنشّط حيث أن جسده كان شديد الضّعف، وصفت له التّدليك بأنواع من العطور العربية والخمر الأبيض المشبع بالقرفة.

إن لم أستطع شفاءه فعلى الأقل حاولت التّخفيف عن صديقي الذي أصبح ممتنّاً لي كثيراً؛ لم يعد يريد أن يفارقني ورجاني بأن أطيل إقامتي في مكّة.... فأخذت أفكر بسلفي العظيم ليون روش، الذي أُجبر على الهروب والنّجاة بأعجوبة بمساعدة الشّريف الأكبر.... كيف تتغيّر الأمور!

مقابل نافذتنا هناك مكتبة صاحبها هندي يمضي أغلب وقته جالساً القرفصاء في دكانته الصّغيرة جداً، ويقوم بحفر زخارف هندية تجسد المدينة المقدّسة والكعبة ومختلف مراحل الحج، إلخ. برصانة وباستخدام ريشات صغيرة جداً، يغطي بعض الأماكن بالأصفر بواسطة الكروم، ثم يأتي دور اللون الأخضر الزُّمرُّدي والأزرق الصّفيري والأحمر الأرجواني. حتى أنه يزيّن بعض المواضع بالذّهب، وبواسطة ريشته الدّقيقة التي تتحرّك ببطء شديد فيبدو وكأنه غير متمرّس، تبدأ الألوان والمعالم بالظّهور شيئاً فشيئاً.

إنه يرتدي ثوباً أصفر طويلاً، ووجهه الأصفر كوجه أيّ ناسك مُحاط بلحية طويلة بيضاء، أما الطّريقة التي يضيف بها ألوانه فمضحكة. إنه يرجع رأسه للخلف كي يحكم على العمل ثم يضيف بعض اللمسات، بالمختصر إنّه يتصرّف وكأنه فنان كبير ذو شأن.



أزياء من الحجاز

إنّه شخص بسيط وسعيد وهو في نفس الوقت فنان وبائع، يبيع ورق رسائل وريش قصب، وستيلوغرافات إنكليزية من الإبونيت[1]، كما ويبيع الحبر وأقلام الرّصاص والورق الملون لتزين المقاهي والشّقق، حتى إنه يبيع الصّور!

يظلّ ساكناً من الفجر إلى المغيب، ما عدا أوقات الصّلاة التي يقضيها في الجامع، فهو دائماً هنا قابع في دكانته وكأنه تمثال من الشّمع، ضمن إطار غريب.

* * *

أهداني أحمد بوشناق نسخة قرآن جديدة لم أستطع لمسها حتى أتوضأ بشكل صحيح كي لا أدنّسها بيديّ غير الطّاهرتين.

أخذته عند الشّيخ عابد[2] Habbeud، مفتي المذهب المالكي الكبير. هو أيضاً يُكن

(1) مادّة صناعيّة تشبه المطاط القاسي.

(2) يكتب كورتيلمون الاسم بالفرنسيّة وكأنّ لفظه: عَبّود، على طريقة أهل الجزائر وتونس في التّصغير التّحبّبي لأسماء الأعلام. وعلى أيّ حال فاسمه عابد بدلالة الرّسالة المكتوبة بخطّه والواردة في النّص أدناه. ويلاحظ أنّ الكاتب هنا وفي مواضع أخرى من كتابه يعبّر عن حرف العين بحرف H.

لي مودّة كبيرة، ويقدّم لي مواعظ طويلة وخطباً مهمّة جداً عن الأخلاق، ويقوم الحاج «أكلي» بالتّرجمة لي.

إنّه يعلّق بخيط من الحرير مفتاح بيته وقرآناً كريماً. يقوم بهزّه فيتفاءل باهتزازه ويتوقع لنا عودة ميمونة.

وبعد بعض الابتهالات الحروفيّة[1]، ترك الكتاب المقدّس الذي اتجه على الفور نحو الشّرق، وهذه إشارة للسّعداء الأكثر حظاً.

يعتقد معظم رجال الدّين هؤلاء بالسّحر والجنّ، وتصطبغ خرافاتهم السّاذجة بفلسفة طفولية، لكنها أخلاقية ومسلّية.

* * *

إنّ إقامتي في مكّة لم تصادف فترة الحج السّنوي الكبير، وهذا من حسن حظي، إذ أستطيع الآن مراقبة كل شيء بتمعّن ودون عجلة، وأنا مطمئن بشكل كامل بالنّسبة لموضوع المأكل والمسكن. فهذان الأمران من أهم ما يشغل بال أيّ غريب قادم إلى المدينة المقدّسة، في الوقت الذي تكون فيه المدينة مجتاحة من قبل الحشود الكبيرة من الحجّاج. إنّ خطورة اعتباري كجاسوس ستكون وقتها بالتّأكيد أكثر بكثير، إلا أنني استخدمت هذه الحجّة كسلاح فأخذت دائماً أردّ على مَن يستجوبني: «لو أنه لدي شيء أخفيه لكنت استفدت من فترة الحج كي أختفي بين الحشد الواسع، فمن الممكن أن أضيع تماماً بين الجموع القادمة من مختلف البلاد ومختلف الأجناس».
أمرنا ان أاليـلبليـلابي

جعلني صديقي الشّيخ عابد[2]، مفتي المذهب المالكي، ألاحظ الحرية المعطاة

(1) يستخدم كورتيلمون العبارة بالفرنسيّة: invocations cabalistiques ولو أنّ مؤدّاها ليس صحيحاً هنا، فالقَبّلاه لا تمتّ بصلة إلى علم الحروف العربي.

(2) كان المفتي الشيخ عابد بن حسين المالكي رجلاً جريئاً يجابه ولاة الأمور بما يراه منكراً ولا يخاف لومة لائم، لذا نقم عليه شريف مكة ونفاه إلى اليمن ثم استقر في إمارة دبي مدّة طويلة، ثم عاد بعد ذلك إلى وطنه مكة حتى توفي سنة 1923.

للغُرباء الرّاغبين في الإقامة في المدينة خارج أوقات الحج. فقال لي:

«من قبل، منذ سبع أو ثمان سنوات فقط، كانوا يُخلون المدينة حالما تنتهي المراسم الدّينية».

«بعد ثلاثة أيام من يوم عرفات، يبدأ المنادون يجوبون شوارع المدينة المقدَّسة منادين: «هيّا، أيها الحجّاج الأتقياء حان وقت العودة إلى بلادكم. ستغادر غداً قوافل مصر وسوريا. إن السّفن راسية في ميناء جدَّة متنظرة من يرغب منكم بالعودة إلى الدّيار. سيتمّ رفع المرساة قريباً وبإذن الله ستعودون إلى بلادكم سالمين غانمين محمّلين بالبركات».

وبما أنه كان يعشق سرد القصص والحكايات والأشعار، فقد قصَّ عليّ رواية يدعم بها قوله:

«في زمن عبد المطّلب Abd el Montaleb، رحمه الله، جاء في إحدى السّنوات ملكٌ هندي ليقوم بفريضة الحج، وكان بصحبته عائلته كلها وعدد كبير من الخدم. كان قد جلب معه كنوزاً كثيرة، وفي نيّته الاستقرار في مدينتنا المقدَّسة.

«أتمّ بورع جميع مراسم الحج ولم يُبدِ أي اهتمام بالمنادين الذين يطالبون الحجّاج بمغادرة المدينة.

«تابع عاداته، واستمرّ بالذّهاب كل ليلة إلى الحرم ليطوف حول الكعبة.

«وفي إحدى الليالي بينما كان يصلّي هناك، تقدّم منه عبد المطّلب وسأله بعنف عن سبب إطالته مدة إقامته في مكّة ومعاندته القوانين.

«أعطني الأمان يا أخي المحترم. امنحني ثقتك، وسأعترف لك بكل شيء. كنت سابقاً ملكاً في بلاد الهند، وأملاكي الواسعة تهبني وبكثرة من ثروات الأرض. كنت فاحش الثّراء، أملك مناجم من الذّهب والفضّة والأحجار النّفيسة التي لا تنضب، فتضاعفت ثروتي بشكل غير طبيعي.

«كانت التّجارة عندنا نشطة مما أغنى شعبي، وبالتّالي كانوا يدفعون لي الضّرائب الكبيرة وبانتظام.

«كان هناك ثلاثة أنهار تغذّي مملكتي. لكنني أيها الأمير ودون حكمة مني، طمعت في توسيع إمبراطوريتي الشّاسعة وقمت بإرسال الحملات.

«أعلنت الحرب على جيراني الذين لم يطلبوا وقتها سوى العيش بسلام كما كان الوضع مع أسلافي، وبسبب غلطتي هذه لقي آلاف الأشخاص حتفهم.

«تعب أفراد شعبي من الحروب الشّعواء، فثاروا عليّ. أصبحت المؤامرات تتالى، ولكي أقمعها تحوّلت إلى طاغية ظالم ودموي.

«قتلت وعذّبت بشكل فظيع عدداً كبيراً من الرّجال الأشراف المحاطين بالتّقدير والاحترام والمعروفين بشجاعتهم وذكائهم. قتلتهم بعد أن تعبوا من التّعذيب الشّديد الذي أنزلتُه بهم.

«أخذت الكوابيس تلاحقني وعشت في رُعب دائم، حتى إنني لم أعد أستمتع بأي متعة في الحياة.

«إن أعذب الألحان وأروع الرّقصات الهندية والمآدب ورحلات الصّيد والأعياد وجميع أنواع المُتع لم تستطع أن تسلّيني.

«جافاني النّوم، وتضاعف هذياني بسبب أحزاني. يوماً بعد يوم كان عنفي يتزايد ويُرعب رعيّتي حتى آخر حدود مملكتي، وكأنّ عاصفة من الموت والحزن أخذت تحوم حول بلدي.

«إلّا أن الله أنار بصيرتي فجأة، إنه الكريم. وأخذت أؤنّب نفسي، وقرّرت التّخلّي عن كل شيء، وأن أمضي آخر أيامي في الصّلاة وفي فعل الخير. لا تصدّني، أتوسل إليك... دعني أمت على هذه الأرض المقدَّسة، على أمل أن أدفن في مقابر مكّة المباركة «المعلاة» Maâla التي تعدّ مقاماً مؤقتاً قبل الصّعود إلى السّماء».

أجابـه عبد المطّلب: «إن الله سيقبل توبتك، إن كانـت صادقة»، إلّا أن غلطك كبير جداً، وإن كنت تظن أن دفن جـــدك في هذا المكان المقدَّس سيعطيك أيّ امتياز عند العدالـة الإلهيـة العظيمـة فإنك مخطـئ. كثير مـن المؤمنين يعتقدون ذلـك، ويمكنك التّأكد بنفسـك من صحّة أقوالي....

«اذهب هذا المساء إلى المعلاة Maâla لوحدك، ونمْ هناك على حصيرة بسيطة، ثم عد في الغد وقل لي ماذا رأيت».

«انصاع الملك الهندي برضوخ تام لأوامره وذهب بمفرده إلى المقبرة حيث أمضى الليل وهو يصلّي. أخذ يحرك عينيه بقلق للهرب من هذه الوحدة الموحشة.

«حلَّ الليل بشكل كامل، ليل للسّهر والحلم.

«الوقت يمرّ.

«بدأت أطياف مرنة متطايرة تتراءى له عند الأضواء غير الثّابتة، ثم بدأ الشّروق، فظهرت ظلال بشرية تتحرّك بشكل غير واضح حول جمال رائعة محمّلة بحمولة ثقيلة....

* * *

أخبرني شيخ عابد أنّ هذه هي الجِمال المقدسة (جِمال خضراء djemel khadra)، تأتي كل ليلة محمّلة بأجساد المسلمين المؤمنين الذين ماتوا بعيداً عن مدينتنا المقدَّسة، إلا أن الله العظيم أراد أن يدفنوا في هذه الأرض الطّاهرة ويحلّوا محلّ جثث المسلمين النّاقمين الموجودة هنا.

تحمل الجمال المقدَّسـة هذه الجثث المحرومة من رحمة الله نحو بلاد بعيدة، إلى أن يحين يوم الفصل....

* * *

«شـاهد الملك الهنـدي بوضوح هـذا اللغز المرعب وهـو يتحقّق أمـام عينيه، فقد ظلّت الجمال المقدَّسة تحمل وتفرغ دون توقف حتى بزوغ النّهار.

«عند السّاعة المتفق عليها في المسجد، أعاد سرد ما رآه على عبد المطّلب، فقال له بلطف: «إذن، يمكنك الآن الذّهاب إلى بلدك بما أنك رأيت بعينك أنّه لا يكفي أن تموت في أرض الحجاز كي تستحق الجنّة. عُدْ إلى ديارك، أتمّ بورع صلواتك، افعل الخير وادعُ الله.... إنه هو الرّحيم.

* * *

أضاف الشّيخ عابد: «لا يمكنني أن أقصَّ عليك العدد الذي لا يحصى من المعجزات التي تحصل هنا وبشكل يومي، فقط استمع إلى هذه القصة التي تعدّ دليلاً قاطعاً على العدالة الإلهية العظمى:

«كان هناك في يوم من الأيام ابن ملك مغربي من الأندلس قد أُسر في بلاد الرّوم، حيث حبسه الملك وصيّره عبداً.

«استخدمه الملك المسيحي بستانياً في قصره. وفي يوم من الأيام رأى ابنة الملك وهي تشعّ جمالاً ولطفاً.

«تبادل الاثنان النّظرات، وأهداها البستاني وردة فقبلتها. فاشتعلت نار الحب في عروقهما، وأصبحا حبيبين.

«كانت تأتي كل ليلة إلى الحديقة، فأخذ حبّها يزداد يوماً بعد يوم في قلبه، وبالمقابل تضاعفت معاناتها من الحواجز التي تفصل بينهما والتي من الصّعب جداً تخطيها. قالت له متوسّلة: «تخلَّ عن دينك، وسأحصل بسهولة على عفو من والدي، فإنّه لن يستطيع مقاومة دموعي، وهكذا سيتمّ لنا لمّ شملنا». إلا أنها وجدته متمسّكاً بدينه فلم تلحّ عليه. وفي يوم من الأيام وصلت إلى مرحلة بائسة من الحزن واليأس، فسألته: «ماذا يجب عليّ أن أفعل كي أصبح مسلمة؟» قال: «عليك أن تتلفظي بالشّهادتين؛ لا إله إلا الله، محمّد رسول الله». تمتمت بصوت متعب وناعم كأنه صدى: «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله».

«إنّ الله قد شملها بعطفه.

«جنباً إلى جنب ذاقا سعادة عذبة لا حدود لها، حتى فاجأهما الملك ذات مرة ونزعهما بقسوة من أحلامهما، فرماه هو في زنزانة مظلمة أما هي فثار عليها وعنّفها بشدة.

«إلا أنّ دموعها ألانت غضب الأب وأنجت العبد من الموت.

«استعاد الأمير حرّيته، لكنه طرد من قصر الملك. لم يخطر بباله مطلقاً أن يرجع إلى دياره، وظلّ يحوم حول منزل محبوبته بعناد على أمل رؤيتها.

«لكن الحزن كان قد أضنى الأميرة، وأخذت تذوي كوردة ذابلة. وفي النّهاية فارقت الحياة.

«تمّ دفنها في مقبرة الرّوم المسيحية. وكاد الأسى يفقد محبوبها البائس عقله، فراودته فكرة نبش القبر كي يرى للمرة الأخيرة الملامح الغالية على قلبه. وفي الوقت الذي أمضياه معاً كان قد قدّم لها هدية متواضعة، هي سوار من الفضّة، وكانت قد حلفت بأن تلبسه حتى آخر يوم في حياتها.

«من شدّة حزنه أراد أن يسترجع هذا التّذكار الطّاهر كي يحتفظ به إلى الأبد.

* * *

«وعندما حل الظّلام، أخذ يحفر بانفعال الأرض بيديه. لقد وصل إلى مبتغاه، لكن يا للفظاعة؛ لقد وجد جثة عربي عجوز.

«كان الميت يرتدي بزّة فخمة من ثياب مكّة، وبين أصابعه المتقلّصة تلمع سُبحة فاخرة من اللؤلؤ الصّافي....

«دفعته قوى غير طبيعية، فانتزع هذه القطعة الثّمينة وهرب.

«مشى طويلاً، وعانى كثيراً من التّعب والحرمان الذي لا يمكن احتماله، لكن في النّهاية وصل إلى مكّة. بما أنه فقد كل شيء على وجه الأرض، فقد أراد التّقرب من الله والموت في الأراضي المقدّسة.

«منذ لحظة وصوله ذهب إلى الكعبة وسجد أمامها، ثم تابع صلواته وهو يحرّك حبات السُّبحة بشكل آلي.

«فجأة هرع شاب إليه.

«صرخ في وجهه قائلاً: «أيها البائس، من أين جئت بهذه السُّبحة التي لا يوجد مثلها في الكون؟ لقد أراد أبي أن تُدفن معه في مقبرة المعلاة Maâla الطّاهرة».

«أيها المنتهك لحرمة القبور، لا بد أنك سرقت قبره».

«تجمّع النّاس حولهما، وفي وسط الصّياح والضّجيج ساقوه ليمثل أمام محكمة القاضي.

سأله القاضي بعنف: «من أين جئت بهذا الشّيء الثّمين؟».

أجابه المسافر: «وجدته في بلاد الرّوم، من حيث أتيت». وروى بالتّفصيل قصته المحزنة.

«تأثّر الحضور بمظهره الصّادق واستمعوا له بكل حواسهم».

قرّر القاضي قائلاً: «فلنذهب إلى المعلاة Maâla. وأنت أيها الشّاب ستعرّف بسهولة على قبر والدك، وبعون الله سنعرف الحقيقة قريباً».

«ذهبوا إلى هناك وأخذو يحفرون الأرض، ولدهشة الجميع وجدوا جثة الأميرة المسيحية الجميلة متزيّنة بالحلي. كانت تبدو وكأنها نائمة كالعذراء الطّاهرة، وفي معصمها يوجد السّوار المتواضع.

«لا بد أنها نطقت بورع شديد الشّهادة المقدّسة «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله» ثم قامت الأشباح من الجمال بوظيفتها».

* * *

كثيراً ما كان الشّيخ عابد يقصُّ عليّ قصصاً من هذا النّوع، فهو يريد أن يقنعني بألغازهم المقدّسة....

لكنه غضب من فضولي عندما تجرّأت في يوم من الأيام وتحدثت في موضوع أصل اللغة العربية، فقلت له: «يزعم علماؤنا أن الكتابة العربية مشتقّة من أصل عبري»[1].

أجابني بسخط: «أيّ دجل هذا! إننا نملك في متحف الكتب مخطوطات قديمة «بأحرف منفصلة»[2] تعود للعصور الأولى، قبل النّبي محمّد ﷺ بكثير».

وعندما أظهرت له رغبة ملحّة في رؤية نموذج منها كي أتثقف، قال لي:

«ربما في الغد سأجلب لك إحداها، ولا تأمل أبداً في الدّخول إلى متحف الكتب حالياً. لكن إن أطلت إقامتك بيننا عدة أشهر، من المحتمل أن آخذك إلى هناك، أما الآن فسيكون ضرباً من الجنون مجرد التّفكير بتحمّلي مسؤولية كهذه.

«إنك تعلم جيداً مكانتك عندي، وأنا واثق تمام الثّقة من إخلاصك، لكنني لست سوى خادم متواضع لله، وليس بمقدوري فعل كل ما أرغب بفعله من أجلك....».

ثم أضاف: «هل شاهدت الأحجار المنقوشة بالكتابات عليها على طريق مِنى؟».

أجبته: «نعم، على يسار الطّريق، قبل بضع خطوات من مدخل المدينة. إلا أنها منقوشات كوفية تعدّ حديثة تقريباً، ومجرّدة بالنّسبة لي من أيّة أهمية علمية».

قال لي: «كان هناك سابقاً، على طريق عرفات، أحجار منقوشة ومزيّنة برسومات ووجوه بشرية تعود إلى ما قبل الإسلام، لكن الوهابيين دمّروها».

كان هذا كل ما حصلت عليه من صديقي الشّيخ عابد. بالطّبع في اليوم التّالي لم يجلب لي أي مخطوطات ثمينة، وظلّ اللغز غامضاً بالنّسبة لي.

إنّ حديثي يُعدّ من الأولويات العلمية، أليس لديه الرّغبة من التّأكد من صحّة كلامي؟

---

(1) هذا هُراء، فالكتابة العربيّة تستند إلى أصول يمانيّة قديمة، كالخط المُسند السّبئي، ولكن تطوّرها الأخير، كما في نقش شاهدة قبر الملك امرؤ القيس الكندي في النّمارة بجوبي سوريا، كان استناداً إلى الحرف الآرامي النّبطي، وليس العبري على الإطلاق.

(2) لا بدّ أنّه يعني الأبجديّات الحِميَريّة والسّبئيّة والقَتَبانيّة وغيرها من لهجات العربيّة الجنوبيّة (التّيمانيّة)، وهو بذلك مصيب تماماً.

ولماذا نجد علماء مسلمين أمثال حمدي باي، ذوي النّفوذ القوي في القسطنطينية، ليسوا مهتمين بتنوير العالم الغربي عن الأصول الغامضة للغة العربية.

إنّ اكتشاف الحقيقة سيؤدّي إلى نتائج عجيبة بالنّسبة لتاريخ الشّعب العربي، وخاصة أنني مقتنع أن اللغة العربية هي إحدى أقدم لغات العالم، ومن الممكن حتى أن تكون اللغة الأم[1] لكل اللغات!

سيكون من المحتمل وقتها إعادة كتابة التّاريخ المجهول لهذا الشّعب العربي الأصيل المتواجد منذ العصور الأولى. لقد كُتب تاريخ هذا البلد بشكل منفصل قطعة قطعة، مع المبالغة حتماً بالأهمية التّاريخية لبعض شعوب الشّمال، حيث أنّ تاريخهم معروف جيداً، أما شعوب المنطقة الوسطى فإنهم منغلقون وغامضون بالنّسبة لتاريخهم، كما هو حال الصّحارى التي يعيشون فيها.

أما بالنّسبة لليمن، فلا شك أنه بلد رائع، وهو على الأغلب من أغنى بلاد العالم[2]، لكن ماذا نعرف عنه؟

* * *

إنّ منازل مكّة كمنازل جدّة، مبنية بطريقة متينة من الحجر والملاط، حتى أنها مدعّمة بعوارض من الخشب داخل الجدران.

هذه المنازل مصمّمة بطابقين أو ثلاثة، ومن الممكن أن يصل بعضها إلى خمسة طوابق. جميعها مزيّنة بمشربيات من الخشب الهندي، وأغلبها مشغول بعناية فائقة.

---

(1) قد يكون اقترب صاحبنا من الحقيقة، ولكن الأصحّ أنّ أصل اللّغات القديمة يعود إلى اليَمَن، وما تفرّع عنه من لهجات وصلت إلى 43 لهجة. وقناعتي الشّخصية أنّ فرع اللغات الكنعانيّة إنما انطلق أيضاً من اليمن واتجه شرقاً صوب عُمان ومنطقة الخليج العربي، ثمّ صعوداً إلى العراق وسوريا. وفي العراق شهد التّاريخ أوّل كتابة مقطعيّة في التّاريخ (وهي المسماريّة السّومريّة) في حوالي سنة 3200 قبل الميلاد.

(2) الآن أصاب الرّجل كبد الحقيقة، فاليَمَن هو الأصل والمنبع الحضاري واللّغوي الأقدم للشّرق برمّته.

إنّ تنوّع العمل المعماري في بعض الأحيان لهذه المنشآت يكسبها شكلاً مبهجاً ويزيدها جمالاً. المنازل من الدّاخل مهيأة بشكل ذكي، بالنّسبة للرّاحة خاصة. ويكون الاهتمام منصبّاً بشكل أكبر على الطّوابق العليا، فهناك فقط يمكننا الحصول على بعض التّيارات الرّائعة، ويمكننا استنشاق الهواء بعمق. لكن المكان الأكثر راحة دون منازع في هذه المنازل هو الشّرفات، والتي للأسف لا تُستخدم سوى في الليل.

يعتني السّكان بأنفسهم بنظافة الشّوارع التي تشبه في شكلها العام شوارع دمشق أو شوارع القاهرة القديمة. إنك مجبر على الإشادة بروعة التّعاضد الذي يعمّ هذا البلد، فإنّ تكلفة النّظافة تكون طواعية فردية، بما أن سكان مكّة لا يدفعون أي ضريبة من أي نوع، وبالتّالي لا يمكن تأسيس شبكة لمصلحة النّظافة، سوى أنه تتمّ إزالة الأقذار على ظهور الحمير.



منازل مكّة

لقد قمت بنزهات طويلة في الجنوب الغربي للمدينة، على طريق عسير. وبمجرد الخروج من ضواحي المدينة تصادفك قرية كبيرة زنجية.

إنها قرية غريبة مضحكة مبنية بطريقة لا يمكن تصديقها! إنها مشيّدة بواسطة صفائح البترول القصديرية؛ لا بد أن سكان مكّة لديهم استهلاك كبير جداً من هذه المادة القابلة للاشتعال حتى استطاعوا بناء مدينة كاملة تقريباً من مخلّفات الأوعية.... في الحقيقة

إنّ من عادتهم ترك الفوانيس مشتعلة طوال الليل، سواء في الشّوارع أو الجوامع أو الشّقق، وكنت أسأل دون جدوى عن السّبب.

عندما خرجنا من هذه القرية السّوداء وصلنا إلى واحة، يرويها مجرى ماء ضعيف يخرج من خزان كبير مبني من الطّوب.

تتألف هذه الواحة من بضع هكتارات من الحدائق، وحقل برسيم صغير، ومئات من الشّوكيات ومثلها من النّخيل. كنت أحب أن آتي إليها لأرى شيئاً قليلاً من الخُضرة، ولأسمع خرير الماء الجاري! في هذا البلد شديد الحرارة الملتهب، الخالي من الزّرع كأنه ميت، كان هذا المرج الفقير الصّغير يشكل بالنّسبة لي الذّكرى والحلم والماضي.... والأمل.

الأمل بشكل خاص، الأمل في رؤية مروج فرنسا الجميلة والأنهار المتدّفقة والظّلال الرّطبة للوطن. كنت أغمر يدي في المياه المنعشة، وأبلّل صدغي، ثم أعود أكثر بهجة وأكثر قوّة إلى المكان المعتم في المنفى.

* * *

خارج هذه الواحة لا يوجد أي أثر لأيّة خُضرة في مكّة يستحق الذّكر.

ولكي أكون دقيقاً يجب أن أذكر عدداً من النّخلات وأشجار الرّمان التي تزيّن حديقة عبد المطّلب Abd el Montaleb، وإحدى حدائق قصور الشّريف الأكبر.



قصر الشّريف الأكبر على الطّريق إلى مِنى

هنـاك أيضاً شـجرة علـيّ ذكرها وعندها أكون أحصيت كل شـيء! إنها شـجرة تين مسنّة دائمة الخُضرة، يبلغ عمرها على الأقل مئة عام، وفي ظلّها يوجد سوق الخراف، الموجود خارج المدينة على طريق مِنى.

* * *

يملـك الشّـريف الأكبـر ثلاثة قصور في مكّـة، إلا أنّ أحدهـا قد دُمِّر حديثاً بسـبب حريق هائل.

يوجد الثّاني، وهو أقدمها وأجملها، في الشّـارع الرّئيسـي على بُعد خمسمئة متر فقط من الحرم. عمارته جميلة جداً، وهو مزيَّن بمشربيّات قديمة رائعة، ومبني بطريقة متينة جداً، مما يذكر بالنّمط الڤينيسـي. ومن الجدير بالذّكر مطارق الباب البرونزية، المنفّذة بجمال رائع.

أمـا القصـر الثّالـث، الذي يُعدّ بالأحـرى منزلاً ريفيـاً، فيوجد في الطّريق الشّـمالي للمدينة على طريق مِنى.



أطلال حمّام البخار المبني عند مدخل مكّة، على طريق مِنى

إنّـه مبني على الطّريقة الحديثـة وتحيط به حديقة. وفي قبالته أنشـأت دائرة الصّحة التّركيـة حمَّام بخار مخصّصـاً لتطهير ملابس الحجَّاج عند عودتهـم من مِنى، حتى أنّ أنقاضه ما زالت تغطّي الأرض.

أيّ ضـلال هذا الذي دفع الأطباء لبناء حمَّام تطهير داخل المدينة؟ وهل مسـاحة 4 X 8 أمتـار كافية لهكـذا فكرة؟ في أي ظرف انتظر الـ 300,000 حاج دورهم! لقد ثار الجميع مباشـرة، فدخل عدد من المشـايخ العرب إلى الشّريف الأكبر، وبغضب شديد أعلنوا العصيان العام.

«يريدون أن يُعرُّوا نسـاءنا بحجة تطهير لباسهن، وأنت تسمح بهذا العار!

«إنك غير جدير بأن تكون الشّريف، وإن كُنت امرأة فنحن رجال.

«قبضتنا جاهزة مثارة، ونحمل أكفاننا بأيدينا!

«إن كنت تريد الحرب، فنحن مستعدّون للموت».

وبينما كان هذا الشّخص المهم الصّالح يفكّر، لا يعلم إلى أي صفٍّ ينحاز، كان العرب في الخارج يأخذون حقهم بأيديهم، وبدأوا بتخريب هذا الصّرح التـخيف الذي يشـكل تحدياً بالنّسبة للحسّ السّليم وللبشرية، وأيضاً بالنّسبة للعلم وللتّطور الذي يدّعي تمثيلهما....



امرأة من مكّة

ترتدي نساء مكّة الملابس الأكثر قبحاً التي يمكن تخيّلها. إنها تظهر في الشارع وكأنها نوع من الجراد، حتى أنهم ينادونهن «سُرعوفات» (أفراس النّبي *les mantes religieuses*). تظهر أرجلهن من هذا الزّي نحيلة جداً، فهي ملفوفة بسراويل ضيقة حتى الأفخاذ، وهذه السّراويل أكثر قبحاً من سراويل أهل تونس، وينسدل من تسريحتهن العربية وشاحٌ بلون غامق يصل طوله حتى منتصف السّاق، فيكتمل بذلك التّشابه مع الحشرة المضحكة، والتي أرى نفسي مضطراً لمقارنتهن بها.

تجبرني الحقيقة على قول أنّ هذا المظهر غير المغري على الإطلاق، لا بدّ أنه يخفي وراءه في كثير من الأحيان نساءً جميلات جداً، كنساء القوقاز وبلاد فارس والحبشة وسوريا ومصر، فمن المؤكّد أنه ليس فقط القبيحات مَن يأتين إلى مكّة.... وخاصة عندما يتمّ جلبهن كالرّقيق. حيث أنّ نظام العبيد ما زال موجوداً في الحجاز، ولا أحد يشتكي منه. وفي الحقيقة إنهم يرأفون كثيراً بالعبيد، ويعاملونهم بالأحرى كأبناء لهم، أيّ أنهم مطالبون بالطّاعة المطلقة دون أيّ نقاش مع أسيادهم. كذلك من الممكن أن يضرب الأب ابنه على خدّه، بالمثل يمكن للسّيد أن يصفع عبده لكن ليس أكثر من ذلك أبداً. القانون واضح وصريح: ممنوع منعاً باتاً ضرب العبد أو إنزال أيّ عقاب شديد به. إنّ القرآن واضح جداً فيما يخصّ هذا الأمر، كما وأنّ هناك إجراءات رادعة لا ترحم من يخالف هذا القانون. حتى أنه قبل أن يتمّ شراء العبد، يقوم السّيد بسؤاله: «أترغب بخدمتي؟» فإن كانت الإجابة بالرّفض فلا شيء في العالم يمكن أن يجبره، ويصبح من المستحيل عقد الصّفقة، وسنرى أن نظام الرّقيق معتدل فقط في جزيرة العرب المعاصرة.

* * *

إن الوقود نادر جداً في مكّة. يُحرق الكثير من روث الجمال الجاف، والقليل من الخشب، وأخيراً نوع رديء من الفحم يصنع من نبات السّنا البري، وهو يحترق بسرعة كبيرة مخلّفاً رماداً أبيض دقيقاً جداً.

والطعام هنا بسيط جداً، فقط لو أنهم لا يستخدمون فيه السّمن المستخرج من النّعاج،

عندها سيكون مشهياً أكثر. للأسف، طعمه المدهن غير مستساغ من قبل الأوروبيين، إلا أننا نعتاد على مذاقه، لا بدّ من ذلك؛ حتى أننا يمكن أن نحبّه على المدى الطّويل بما أن سلطان القسطنطينية، كما يقال، لا يأكل سوى الوجبات المحضّرة بالسّمن البلدي القادم من الحجاز.

* * *

في مكّة كانت أيامي مملّة. عند وصولنا دفعنا مبلغاً من المال لمطوّفنا، كما هي العادة، كي يتحمّل نفقات إقامتنا لديه. لم يعد علينا الاهتمام بأي شيء؛ فهو يؤوينا ويهتم بجميع تفاصيل الحياة، فيحضّر وجباتنا ويتكفل بغسيلنا، بالمختصر يقوم بكل شيء.

علينا فقط أن نمارس حياتنا؛ يجب ألا أبدو فضولياً أمام ما يحدث في المدينة، وعليّ مقاومة رغبتي الدّائمة في الخروج. إنني أصلّي كثيراً وأنام أكثر، لأن الحرَّ مُهلك وأيّ جهد يمكن أن يكلف الكثير.

في الصّباح وقت الاستيقاظ، عند السّاعة السّادسة تقريباً، يقدّمون لنا كوجبة أولية نوعاً من الفطيرة على شكل رقائق، تشبه كثيراً فطيرة الجيمناز Gymnase التي نصنعها، إلا أنها محضرة بالطّبع بالسّمن البلدي، وبالتّالي فرائحة الدّهن والزّنخ تفوح منها بشكل مفرط!

في ما عدا ذلك هي مصنوعة بعناية ومسقيّة بوفرة بالحليب المحلّى أو بالعسل.

وفي بعض الأوقات، كنوع من التّغيير، يضاف إليها اللوز المجروش أو الفستق....

عند السّاعة الحادية عشرة يجلبون لنا الوجبة الرّئيسية، على طاولة منخفضة، ويضعون كل شيء بآن واحد، الوجبات والمقبلات، الفجل ولحم الخروف المطبوخ مع الشّعيرية، ونقانق لحم الخروف المشوية، والطّماطم المحشوّة، والسّمك المقلي، والدّجاج بالمرقة الحمراء، والبطيخ المقطّع قطعاً صغيرة والمشرب بالماء المحلّى بالسّكر، والأرز المطبوخ بالسّمن، إلخ....

نـأكل القليـل من كل شـيء بنهم واضح وبأصابعنـا، ثم ننهي وجبتنا بأقلّ من عشر دقائق!

الحمدلله! انتهينا. نغسـل أيدينا جيداً، نمضمض أفواهنا، ثم نلتفت للتّسـابيح.

عند السّاعة الثّالثة هناك وجبة صغيرة، من نفس النّوع لكن أقل وفرة، وهذا كل شيء حتى يوم الغد التّالي.

لكن على سبيل المثال خـارج أوقات الوجبات، وطوال النّهار، بمناسـبة ومن غير مناسبة، علينا تجرّع الشّاي ثم الشّـاي وأيضاً الشّـاي. يقتضي الأدب أن يتمَّ تقديم ثلاث كؤوس الواحدة تلو الأخرى، وبالمقابل يجب شربها بالكامل.

بالطبع هذا من نتائج التّأثير الهندي إلا أنّ هذا كثيرٌ جداً....

صحيـح أنهم في بعض الأوقـات النّادرة يقدّمـون لنا القهوة، وذلـك ليس بالوضع الأفضل. من المعروف أنّ البنّ اليمني من النّوعية الفاخرة، لكن يا له من انتهاك لحرمة الأشياء! إذ يتمّ حرقه قليلاً، ثم دقه ونقعه مع كبش القرنفل والزّنجبيل أو القرفة! ونقدِّم القهوة بشـكل عام دون سـكر وسـميكة كالشّوكولاتة الإسـبانيـة؛ وبالتّالي فاحتسـاء هذه القهوة غير مشجع على الإطلاق.

يبقى الماء، وهو لحسـن الحظ صافياً وذا مذاق جيّد هنا في مكّة.

يتـمّ جلبه مـن جبال الطّائف بواسـطة أنابيب مياه مصنوعة بشـكل جيد جداً، حيث يسـاق المـاء في الأنبوب نفسـه، إلـى أنابيب مفتوحة من مـكان إلى آخر. يقـوم العبيد بغمس نوع من الدّلاء المصنوعة من جلد الماعز ويعبؤون لمَن يرغب القراب لينقلوها بدورهم إلى منازلهم على ظهور الحمير أو الجمال. ويتمّ تخزين المياه في المنازل في جرار كبيرة من الفخار، كما في مصر.

* * *

إن الحي الأكثر أهمية بالنّسبة لي من بين أحياء مكّة، هو سوق البدو.

يُنصب هذا السّوق الطّريف كل صباح في ساحة صغيرة عند الطّرف الشّمالي للمدينة.

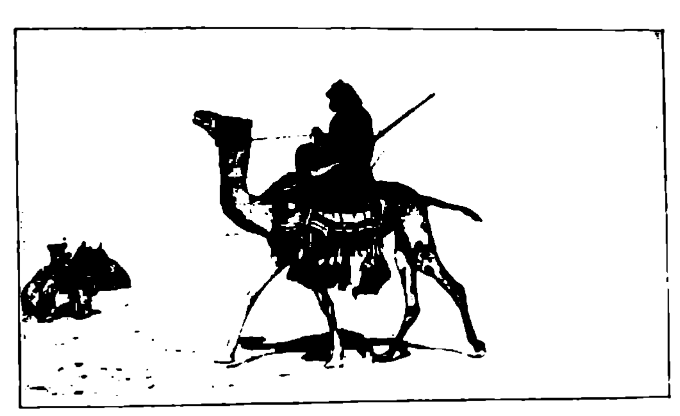
ولغة هؤلاء البدو قاسية وغريبة، وبشراتهم محروقة بشكل كامل بفعل الشّمس. ولباسهم التّقليدي لا يخلو من شيء من الفخامة، إلا أنه غريب جداً.

قبل كل شيء يلبسون قميصاً يشدُّونه بواسطة حزام، ثم يضعون بشكل متصالب مخزن الخراطيش ومخزن البارود والسّيف، حتى إنهم يحملون مسدساً؛ باختصار، هم عبارة عن ترسانة أسلحة كاملة، لكن الأهم من ذلك يجب ألا ننسى «الجَنبيّة» *djambia*المرعبة التي لا يمكن الاستغناء عنها، وهي خنجر ذو نصل مقوس للغاية.

كما يلبسون أيضاً «المشلَح» *méchela* وهو عباءة واسعة جداً وبلا أكمام، أما على رؤوسهم فيضعون *smoda*وهو وشاح من الحرير الملوَّن المصنوع في دمشق أو في بغداد، ويثبت على الرّأس بواسطة «العقال» *haougal* بحيث يصبح شكله كالتّاج. والعقال نوع من الحبال المجدولة نصفها من الذّهب والنّصف الآخر من الحرير الأسود، متناوبة مع بعضها بشكل العصي.

يرتدي الجميع هذا اللباس على الطّريقة التّقليدية، سواء كانوا أغنياء أم فقراء، سائسي جمال أم أسياد القوم؛ وجميعهم يتحدثون بتشدّق مع الكثير من الحركات، ويتحرّكون بطريقة مسرحية وبشيء من التّفاخر.

يشترون من أهل مكّة الأحذية وملابس المناسبات والمسدسات والسّيوف والبنادق ومصبّات قهوة وألجمة وحدوات للخيول وسيور من الجلد وزجاجيات ومجموعة من البضائع الرّخيصة.



بدوي من الحجاز

أما هم فيجلبون بعض الأعمال اليدوية البسيطة من صنع نسائهم؛ كأكياس التّبغ أو خُروج من الجلد مع حبال جلدية ملونة منسوجة بدقة أو مجدولة، وأحزمة خراطيش جلدية سوداء يغرزون فيها بواسطة المطرقة مساميرَ من الفضّة، وحبال من الجلد المضفور، ومصبّات قهوة بدوية لها منقار طويل وشكل غريب، وهي من اختصاص بعض سكان الجبال في المنطقة المجاورة.

يعدُّون أنفسهم من الطّبقة الرّاقية ولديهم عزّة نفس رائعة[1]. لقد ظلّوا على أعلى درجة من الحرّية، ولم يرضوا بأي نوع من العبودية. بلادهم هي بلاد الحرّية الحقيقية، فهم معفون من أيّ نوع من الضّرائب ومحرّرون من أي قانون محدَّد.

لقد قتلوا شارل هوبر[2] Charles Huber، فهم الحرّاس الغيورون على أرضهم

---

(1) يلاحظ القارئ بوضوح أنّ كورتيلمون كان بالفعل من أكثر الرّحّالين إنصافاً وإيجابية وإعجاباً في نظرته للعرب.

(2) شارل هوبر Charles Huber رحّالة فرنسي شهير. أكتب اسمه هنا (هوبير) باللفظ الألماني

التي لا يسـمحون لأحد بمسّـها بسـوء. هم من يدافعون عن قبور أسلافهم حيث يختبئ سرّ أصول اللغة العربية.

على الأغلب سيسـتمرّون بمنعنـا لوقت طويل من دخول مملكة سـبأ. وعلينا أن نعتمد عليهم في كشـف أسـرار اللغة العربيـة التي تعدُّ رمز الحضارة القديمـة التي كانت من أبهى الحضارات، وستظل سراً بالنّسبة لنا بينما تمنحنا آشور Assyrie ومصر كل كنوزهما.

* * *

عند احتكاكنا بهم في سـوقهم في مكّة، كانوا يظهرون وكأنهم أشـباح من الماضي، يبدون كأغراب في هذا البلد العربي الكبير، هم رجال الصّحراء الواسـعة، يعيشون في وحدة قاتلة وأماكن واسعة لا حدود لها.

لقد قمت في صباح أحد الأيام بنزهة مفاجئة لمِنى بصحبة عبد الوهاب.

لـم أُسِـرّ بهذا المشـروع لأحد، فمـن الصّعب جـداً أن أبرّر الفضول الـذي يدفعني لزيارة هذه الأماكن المقدَّسة في وقت تكون فيه خالية تماماً.

لقد استيقظت قبل طلوع النّهار، وخرجت لوحدي من المنزل متجهاً إلى منزل عبد الوهاب. أشركته في نيتي، ودون أن أرجوه كثيراً وافق على مرافقتي.

ذهب لإحضار حمارين نمتطيهما في رحلتنا، وها نحن قد انطلقنا. قطعنا سـاحة سـوق الخشب، الذي هو سوق العلف الجاف والفحم وصناعة أشـياء من الأليـاف النّباتية.

يبدو السّـوق نشـطاً جداً رغم أننا ما زلنا في ساعات الصّباح الأولى. لم أستطع منع نفسـي أثناء المسير من مراقبة بعض التّفاصيل النّادرة.

على اعتباره من الألزاس الواقعة على الحدود الألمانيّة، بينما لفظ الاسم بالفرنسـيّة: أوبير. أرسلته الجمعية الجغرافية الفرنسـية لاستكشاف جزيرة العرب مرتين: الأولى استمرّت 4 سنوات من 1878 إلى 1882، والثانية من 1883 حتى 1884. قُتل في العلا في 29 يوليو 1884 فنقل جثمانه إلى جدّة ودفن فيها. وكان تمكّن من الحصول على حجر تيماء الشّهير ونقله إلى متحف اللوفر.

كان ما لفت انتباهي قبل كل شيء هو كيف يتم استعمال الخشب المخصّص للحرق.

لا يمكن أن نتصوّر الاهتمام المفرط الذي يولونه هنا لإعداد حزمات الحطب.

إن الوقود نادر جداً هنا وبالتّالي فهو ثمين جداً.

يقومون بتقطيع جذوع العَرْعَر إلى قطع صغيرة جداً، ثم يجمعونها مع بعضها بدقّة، من أصغر غصن حتى أصغر شظيّة.

يحتفظون بالجذور والجذوع في سلال وكأنها أشياء ثمينة باهظة الثّمن!

أما العلف الجاف، فيُعتنى به بدقة متناهية. ومروج الحجاز النّادرة لا تقدّم سوى العركش[1]، لهذا فهو يُحصد حبّة حبّة، ويجفّف في الظّل، ثم يُجدل بواسطة حبل فيدو مثل الشّعر النباتي.



الطّريق من مِنى إلى مكّة

(١) العركش أو النّجيل نوع من الأعشاب البرية، وهو نبات معمّر من الفصيلة النّجيلية ينبسطح على الأرض وعندما تلصق عقده ينبت لها جذور، لذلك فهو يمتد لمسافات إذا كانت الأرض رطبة.

بعـد أن يجفّـف يُرصُّ جيداً، ثـم يحتفظ به أخضـر ولا يعطى للحيوانـات إلا بقدر شحيح جداً. يفكّ رباطه وتتم مضاعفته بطريقة غريبة جداً، ستدهش مزارعي فرنسا لو أنهم سمعوا بها.

بعد سوق الخشب مررنا بضاحية مؤلفة من أكواخ صغيرة، تزرب فيها نساء تعيسات، كأنهنّ حيوانات متوحّشة.... أما على يسارنا فتمتدّ مقبرة «المعلاة» Maâla المباركة.

مررنا أيضاً بقصر الشّريف الأكبر، وبقايا حطام حمّام البخار المشهور، فسخر منه عبد الوهاب ببعض المزاح الثّقيل.

ثم يأتي سوق الخراف وشجرة التّين الفرعونية الموجودة هناك. دلّني مرافقي بعد ذلك على منزل عائلة عبد المطّلب، وقرأنا الفاتحة عند مرورنا بمنزله الذي يؤوي الكثير من النّاس.

وصلنا عند نهاية الضّاحية إلى تقاطع طريقي الطّائف؛ طريق القوافل المتجه نحو الشّمال، وطريق البغال المتجه نحو الشّرق، مروراً بمِنى ثم مُزدلفة وعرفات.

سلكنا هذا الأخير، تاركين على يسارنا جبل النّور، وهو بشكل قمّة مخروطيّة ككوم السّكّر منظرها غريب جداً.

مشينا أيضاً في وادٍ ضيق جداً - وتستمرّ تلال الحجاز المملّ الحارقة التي لونها بلون ثعلب الماء....

أخذ حمارانا يهرولان قليلاً على الرّمال، وكان الطّريق خالياً تقريباً. بالكاد نصادف من وقت لآخر شيخاً بدوياً من أهل المنطقة، بوجهه العبوس وسلاحه الذي يصل حتى أسنانه، فيجيب باقتضاب على سلامنا.

ثم وصلنا إلى عين زُبيدة، وهو كحوض سباحة مستطيل الشّكل، محفور وسط وادٍ ضيق عند حافة الطّريق، ويغذّي هذا الحوض أنبوب الماء ذاته الذي يزوّد مكّة بمياه الشّرب.

يأخذ الحجّاج العائدون من عرفات ومِنى حمّاماً سريعاً عند عين زبيدة، ولا بدّ أنهم

يكونون في أشـد الحاجة لذلك بعد أيام الحج القاسية التي مرُّوا بها. لكنها عادةً مضرّة جـداً خاصـة في أوقات الأوبئة. إن مـا يحدث في هذا الحوض هو اسـتنبات جرثومي حقيقي، وتجمُّع لكل الميكروبات الموجودة على وجه الأرض. من المؤكد أنّ سباحة هذا الجمع الغفير في هذا الحوض يسـبّب أخطاراً مرعبة كالتّلوّث المباشـر والأوبئة، لكن يبدو أن الاهتمام بالخدمات الصّحية أمرٌ غير مهمّ هنا.

بسبب الرّوايات غير الدّقيقة، يتمّ الخلط بين عين زبيدة وبئر زمزم المقدَّس الموجود في قلب مكّة وسط الجامع الكبير.

إنه بناء مغلق جيداً ومغطى، وهو عبارة عن غرفة كبيرة مربعة جدرانها وسقفها من الرّخام.

حافة البئر محاطة بسـور من الحديد، ويقوم عبيد بإخراج السّـائل العجيب من فوق السّور بواسطة دلاء من الجلد، ثم يضعونه في أحواض صغيرة من الرُّخام.

من الممكن أن يكون هذا الماء مالحاً قليلاً إلا أن الحاج لا يشعر بذاك الطّعم السّيئ الذي حدّثوني عنه في أوروبا.

كانوا يسـألونني في كل مكان: «ماذا تفعل كي تسـتطيع شرب هذا الماء الذي فسد بسبب كثرة الوضوء ووطء أقدام الدّواب، الخ، حتى غدا وكأنه طين أسود كريه الرّائحة؟!».

أعترف أن هذه الفكرة لم تكن تسـعدني مطلقاً. كان لا بدّ أن أرى بنفسـي كي أتحقق من الحقيقة؛ إلا أن التّاريخ يُكتب بهذه الطّريقة ويصدّق النّاس أكثر الأساطير منافاةً للعقل.

يكفـي أن يخلط المسـافر بين بئر زمزم وعين زبيدة، عندها سـتبدأ الأقاويل وتظهر الشّائعات، ثم ينتشر الخطأ ويتحوّل الخطأ إلى حقيقة.

هناك حكم آخر من المستحيل أن نقرّه، وهو قضية العمامة الخضراء....

كانوا يكرّرون دائماً على مسامعي: «أنت كنت في مكّة؟ لديك إذن الحق بوضع العمامة الخضراء». يا له من خطأ! وكم هو منتشر! وكم من الأخطاء انتشرت على هذا الأساس.

فـي الحقيقة، الحج إلى مكّة لم يزودني بأيّة علامة فارقة، فلم أحصـل على أي لقب

أو أي شهادة، ولا شيء يميّز الحاج سوى لقب الحاج الذي يناديه به أصدقاؤه المقربون وأهله، فيرتبط باسمه كجزء صغير منه، ويسبقه دائماً.

من الممكن أن يشتري المرء أثناء وجوده في مكّة خاتماً من الفضّة، من عند الجواهري المختصّ، كإشارة على التّجمّع الذي كان فيه. وبالمقابل سيبدو قليل الذّوق ومدّعياً إن لبسه ولم يكن هناك فعلاً، إلا أن هذه الحلية نادرة الانتشار نسبياً....

من هنا تأتي أسطورة العمامة الخضراء، فإنّ الحجّاج يشترون من الأراضي المقدّسة عند سفرهم تذكارات لهم ولأصدقائهم.

تكون مدينة مكّة وقت الحج أكبر سوق في العالم الإسلامي، يتمّ فيها تبادل الأقمشة والسّلع القادمة من مختلف أنحاء العالم.

يشتري حجّاج بلد ما، ما يفضلونه من السّلع التي تعدّ نادرة عندهم. على سبيل المثال، سابقاً كانت العمامة الخضراء، واليوم يفضلون العمامة الحريرية الهندية المطرزة بالحرير الأصفر. وعند عودتهم إلى ديارهم يحملون معهم هذه العمامة التي من الصّعب الحصول عليها في بلادهم، والتي لا يتجرّأ المسلمون الذين لم يزوروا مكّة على ارتدائها؛ فإنهم سيحرَجون إذا اعتقد النّاس أنهم قد أدّوا مناسك الحج. لهذا سيحصل الحاج وذلك حسب بلده على علامة فارقة حقيقية.

في الجزائر مثلاً، وخاصّة في ضواحي وهران، يُميَّز الحاج بالعمامة الحريرية المطرزة بالأصفر؛ أمّا في سوريا، ففي بعض الأحيان هي العمامة الخضراء، لكن لا يوجد شيء ثابت على الإطلاق.

إن العمامة الخضراء هي بالأحرى ما يميّز المنحدرين من سلالة بيت النّبي محمّد، ويسمح لهؤلاء فقط في بعض البلاد بارتدائها.

أما في تونس في جربا Djerba، فجميع الرّجال يرتدونها.. وحسبما يقولون فالكلّ منحدر من آل بيت النّبي محمّد ﷺ..

لكن لنعُد إلى مِنى....

بقـي الطّريـق رتيباً مملاً، ثـم وصلنا إلى مدخـل المدينة. يوجد على يسـارنا صرح مهجور على شكل قبّة كأنها مصلّى، مبنيّة على طرف الجبل فوق الطّريق ببضعة أمتار.

قال لي عبد الوهاب: «هنا تحديداً كانت تضحية إبراهيم». حتى أنه أراني آثار ضربة الشّيخ الجليل، فعندما قطع رأس الكبش المقدم كذبيحة، شجَّ الصّخر بعمق.

يوجد قبالتنا «الشّيطان» الأول وكأنه يسدُّ الطّريق، وهو حائط أبيض كلسي، له تقريباً شـكل هرم ناقص، وهو يجسّد الشّـيطان إبليس. عند العودة من عرفات على الحجّاج أن يرمـوا سـبعة أحجار علـى هذا الصّرح، وعلى شـيطانين آخرين لهما ذات الشّـكل، سنصادفهما أثناء مسيرنا، أحدهما في الوسط والآخر عند مخرج البلدة.

يجب أن ندقّق مثلاً على كلمة «حجارة»، على عكس ما قد قيل، لم ألاحظ كومات من الحجارة أمام صروح «الشّيطان».

إنّ هـذه الأحجـار التـي يقوم الحجّـاج برميها ليسـت إلا حصيّات صغيـرة، أكبرها بمقاس البندقة. وهي مبعثرة ومفروشـة على الأرض بسـبب مرور حشـود النّاس، ممّا يشكل أمام الصَّرح، طبقة من الحصى مشابهة لممرات حدائقنا.



الشّيطان الأول في مِنى

كانـت قرية مِنى خالية؛ قابلنا فقط عبدين أسودين عجوزين يحرسان المكان.

قامـا بربط الحمارين بقوائم جمال نائخة على الأرض كالأوتاد، ثم سـخنا لنا الماء كي نعبّئ السّماور، فقد حرص عبد الوهاب على جلب الشّاي والسّكر، وحتى الفحم.

بعد استراحة قصيرة، مشينا في البلدة وحيدين؛ لقد خلت من حشود النّاس التي تجتاحها وقت الحج، وتبدو الآن وكأنها مركز استجمام في جبال البيرينيه، غير أن الحضارة هنا ناقصة بشكل واضح.

إن قرية مِنى لا تبدو أبداً بالاتساخ والبؤس اللذين يتمّ وصفها بهما.

على العكس، لقد أعجبتني منازلها المتينة والمزيّنة بالمشربيات الملبّسة بالخزف الملون، وهو رقيّ نادر في الحجاز.

يوجد ممرّ جبلي دقيق جداً محصور بين طبقات أحد الجبال، وترتفع المنازل على طرفه عند الشّارع الوحيد الذي يمتدّ من الشّمال إلى الجنوب وطوله تقريباً 1,600م....

* * *

خرجنا من القرية، وها نحن أخيراً أمام وادي التّضحيات المشهور أو «جَفنة الشّيطان» كما يسميه بُرتون. هذا المكان المخيف الذي منذ عصور مضت وفي كل عام، يقدِّم فيه آلاف الحجَّاج عدداً لا يُحصى من الأضحيات، كالخراف والماعز والجمال، لإحياء ذكرى تضحية إبراهيم.

إنّ عدد الحجّاج الوافدين إلى الحج في تزايد عاماً بعد عام. وهذا يعود أولاً إلى تسهيلات الاتصالات وفتح الطّرق البحرية. كما وإن الدّين الإسلامي في انتشار مستمرّ في أفريقيا والهند والصّين.

لكن عدد الذّبائح لا يتناسب مع هذا التّزايد، حيث أنّ الخراف والماعز تأتي فقط من الجزيرة الوسطى ومن اليمن، وليس بمقدورهما توفير سوى عدد معيّن من الحيوانات.

ومع تزايد الطّلب تتضاعف الأسعار، فيذبح الغني بشكل أقلّ وغالباً لا يقوم الفقير بالذّبح.

بالرّغم من ذلك، يصل عدد الذّبائح في مِنى ومن عدد من الحجّاج، إلى مئات الآلاف.

كنت أخطط للقيام بنزهتي إلى مِنى عند المساء. فقد حلمت برؤية هذا الوادي

المرعب في الليل على ضوء القمر. كنت أتوقع رؤية مدفن للعظام، فأردت أن أشعر بالرّهبة. وأخذت أتخيّل نفسي في هذا المكان الموحش، الذي يزيده روعة الأشعة والظّلال المنبعثة من ضوء القمر.

* * *

على عكس ذلك، وصلت عند السّاعة الحادية عشرة صباحاً، وقت الشّمس الحارقة، في وادٍ قاحل غير مأهول، لكنني بحثت فيه دون جدوى، عن أثر لأموات أو لأي أوساخ.... يوجد فقط رمل ناعم أصفر اللون، وكأنه يغطي الأرض بكفن ذهبي.

يبدو المنظر عظيماً لكنه بعيدٌ كل البعد عن كونه مرعباً.... ضواحي الوادي قاحلة وشديدة الحرارة بشكل فظيع، وهذا هو الوضع في شرق الحجاز ككل. لكن جبال مُزدلفة وعرفات والطّائف تتدرّج كالمسرح عند الأفق، مشكّلة تصميماً مميزاً.

تنتصب بعض الآثار بشكل مبعثر، هنا وهناك، في هذا المكان المنعزل. في البداية نشاهد جامعاً واسعاً مبنياً بنمط بدائي، ثم يأتي قصر الشّريف الأكبر، والمحملان المصري والشّامي، ويشكل حطام أحدها منظراً جميلاً وسط هذه اللوحة.



وادي مِنى

في المنتصف، تمَّ إنشاء مخازن ومراحيض لخدمة الحجّاج، إلا أنها مختلطة بشكل مؤذٍ؛ وتوجد أيضاً المسالخ على شكل شرفات مدرّجة، وجميعها نظيفة ومبيّضة بالكلس. ليس هناك ما يذكر بالمذبحة العظيمة، التي تدمي وادي التّضحيات الشّهير كل عام، وذلك على مدى عصور مضت.

لذا أُصبتُ بخيبة أمل حقيقية! فقد حلمت بانطباعات رائعة، ورؤى مخيفة وأشباح ليلية. لكنني حصلت على اكتشافات حقيقية بالنّسبة للمسافر الصّادق والمراقب الأمين، فقد حصلت على معلومات عرفت من خلالها أسباب اختفاء مخلّفات الأضحيات على مدى العصور.

إنّ رمل الصّحراء العربية يغطي هذه الجثث ومع عوامل الاحتكاك، وتحت ظروف الطّقس القاسية، تتلف هذه الجثث وتتحول إلى نترات تنسحق بسهولة، وبالتّالي يختفي كل شيء.

ثم يأتي دور الرّياح والأمطار الرّعدية النّادرة، فيتبعثر كل شيء وينتشر في اللانهاية، في الصّحراء الواسعة.

من جانبهم، يساعد الرّجال كثيراً في عملية تطهير الأماكن المقدَّسة، فهم يدفنون جثث الحيوانات الشّاردة في حفر محفورة مسبقاً.

علينا إذن أن نكتشف وبصرامة حقيقية، الخطأ الذي يحوِّل وادي مِنى إلى مدفن للعظام، مما يسبب الأوبئة المخيفة التي تصيب الأحياء والأشياء، وتقضي على الكثير من الحجَّاج المسلمين كل عام.

لقد أجمعوا الآن على اعتبار أن بعض هذه الأوبئة مصدرها خارجي، وبالأخص الكوليرا، فإنها بالتّأكيد محمولة مع القوافل الهندية. لكن لا بدّ أن مكان ذبح الأضاحي في مِنى له تأثير قوي عليها.

لا مجال للشّك بأن الكوليرا تتطوّر في مِنى بهياج أكبر بكثير من أي مكان آخر؛ لكن من الجدير بالذّكر أنّ مرحلة التّجمع في مِنى هي تقريباً آخر مرحلة من مراحل الحج؛

وبالتّالي نلاحظ النّتائج المرعبة لفقدان العناية الصّحية والطّقس القاتل، إضافة للتّعب الذي يشعر به الحاج عند هذه المرحلة، ويجب ألا ننسى التّجمّع الرّهيب لهذه الأعداد الهائلة من البشر. فلا بدّ أن مجموع هذه الظّروف تزيد من خطورة هذا الوباء.

لكن من الخطورة اعتبار مِنى مصدر كل الشّرور.

كما وأنه من المستحيل حصول أيّ ترشيح من الأضاحي المتعفنة إلى المواسير التي تغذي مكّة بمياه الشّرب. حيث أن هذه المواسير مصنوعة من الفخّار ومعزولة بشكل مُحكم. وهي تمرُّ من جانب الجبل على ارتفاع عدة أمتار من الوادي.

يبدو أنّ الطّريقة الوحيدة الفعالة من بين جميع الطّرق الوقائية المعتمدة هي مراقبة حجّاج الهند منذ وصولهم، سواء من الطّريق البحري أوالبري، بواسطة القوافل القادمة من اليمن.

إن استطعنا تخطّي الكارثة التي تواجهنا كل عام، عندها نستطيع دون أي جهد تحديد المسؤوليات، وهي مسؤوليات جسيمة. لكن ما إن يتفشّى الوباء، فمن المستحيل إيقافه، وخاصة في الحجاز. لن يكون أمامنا سوى مقاومته دون أي أمل، حتى إن الاحتياطات التي نتّخذها في بعض الأوقات تزيد الأمور سوءاً.

* * *

أثناء جولاتي في المدينة، راقبتُ بمنتهى الحرص علامات التّصنيع للبضائع المستوردة من أوروبا، سواء كانت أقمشة أو سلع غذائية أو خردوات، إلخ...

لاحظت في كل مكان أن العلامات الإنكليزية والهولندية مسيطرة بشكل خاص.

وهناك بعض العلامات الألمانية والإيطالية، ثم بشكل نادر الماركات الفرنسية (كالسّكّر المكرّر في مرسيليا).

في حين أنّ سوق مكّة ذو أهمية لا يُستهان بها. فإنه، وخاصة وقت الحج، يشكل أحد أضخم الأسواق في العالم. يتدفّق التّجّار من جميع أنحاء العالم الإسلامي، ويقومون بمبادلات تجارية تصل قيمتها تقريباً إلى مئات ملايين الفرنكات الفرنسية.

بالنّسبة للقماش مثلاً، جميع العرب هنا يرتدون الملابس القطنية.

إن القماش القطني الأحمر المقلم بالأبيض، والذي يسمّى «شرقية» *Cherguïa* أو «حمّودي» *Hammoudi*، وذلك تبعاً لنوعيته، يستخدم من قِبل الجميع. يصنعون منه العمامة، والمئزر الذي يحيط بخصر العبيد، كما ويستخدم هذا القماش للمناشف والشّراشف والخيام للاحتماء من الشّمس وللأحزمة، ولا أعلم ماذا أيضاً؟ باختصار، يستخدم لكل شيء. يتمّ بالتّأكيد استيراد كمية ضخمة منه، مما يؤمّن مكسباً جيداً للهند، وهو البلد الذي ينتج هذا القماش. بالتّالي تعود المنفعة لصالح التّجارة الإنكليزية. كما وترسل الهند الإنكليزية، كميات كبيرة من القماش الحريري المموَّج، لكن نوعيته رديئة، ويستخدم لصنع القفاطين.

هذا القماش الذي يسمى «الغارناسو» *Guarnassou*، يباع بالقطعة التي تساوي 15 بيك *pics* أي خمسة أمتار تقريباً، أو ما يكفي لصنع القفطان.

يباع أيضاً كميات كبيرة من القطنيات البيضاء، وبالأخص توجد نوعية راقية جداً من قطن الباتيستة batiste الجيد جداً، حتى أنها غير موجودة في أوروبا، وتصنع فقط في الهند أو إنكلترا (؟) وهذا القماش مطلوب جداً في بلاد العرب.

لا استطيع الجزم إن كان بمقدور التّجار الفرنسيين منافسة هذه البضائع، لكنني أعتقد جازماً أن أمامهم الكثير ليقدّموه في هذا المجال.

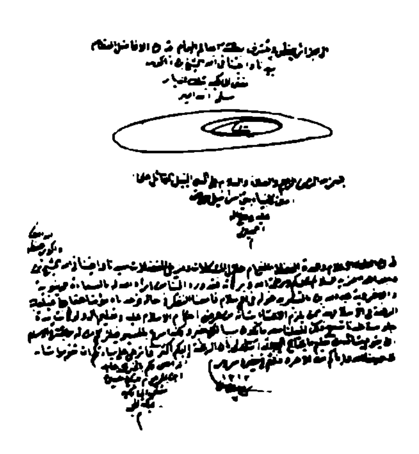
ليس القماش فقط هو الذي يجب أن يهتم به أهل بلدي، لكن هناك أيضاً السّلع الغذائية، كالسّكر والقهوة والأرز والمعجّنات والبهارات والفواكه والسّمك المعلّب. وهناك أيضاً الأدوات المصنّعة، كالسّكاكين وأدوات المائدة والأثاث والآلات، إلخ....

حالياً، كل هذه التّجارات يسيطر عليها الهنود والجاويون المقيمون في مكّة وجدَّة. يتعامل هؤلاء مع الهند الهولندية والهند الإنكليزية، عن طريق أقاربهم الموجودين في الوطن. كل ذلك يعود بالمنفعة لهولندا وإنكلترا، فلا بدّ أنهما تحصلان على مكاسب ضخمة جداً من هذه الأسواق المهمة.

وعلى العكس، لم ألاحظ خلال أبحاثي سوى وجود القليل من التنكّر المكرّر في مرسيليا، والقادم إلى جدّة عن طريق السّفن التي تنقل حجّاج الجزائر مرة كل عام، عندها فقط ترفع الرّاية الفرنسية في سواحل جدّة.

* * *

لقد حان وقت الرّحيل. قمنا بزيارة أخيرة للشّيخ عابد، وطلبت منه رسالة لزميله مفتي المذهب المالكي في الجزائر. خطر في بالي صدفة أنه من الضّروري أن أطلب منه إثباتاً للورع الذي كنت عليه خلال إقامتي في الأراضي المقدّسة، وهذا دليل لا يمكن دحضه نسبة للتّقدير الذي حظيت به عندهم. دون أن أرجوه، أخذ ورقة جديدة ثم استخدم يده كمسند، وحسب الأسلوب العربي في الكتابة دوّن الرّسالة وهذه هي نسختها الأصلية وترجمتها[1]:



(1) يسوق كورنيلمون التّرجمة بالفرنسيّة ولكنّه يقطع بأخطاء، فمثلاً يترجم عبارة الإسلام بـ: salut أي سَلام بمعنى التّحيّة. فيبدو أنّ لغته العربيّة كانت ضعيفة، أو من حيث القراءة والكتابة على الأقل.

«إلى الجزائر، يحظى ويتشرّف بطلعة العالم الهُمام، قدوة الأفاضل العِظام، سيّدنا وأخينا في الله الشّيخ بن زاكور[1]، مفتي المالكيّة بتلك الدّيار، سلّمه الله آمين.

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، والصّلاة والسّلام على النّبي النّبيل القائل: عُلماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل، صلّى الله عليه وعلى آله أجمعين.

«قدوة العُلماء الأعلام وعُمدة الفُضلاء العظام، حلّال المشكلات ومُزيل المُعضلات، سيّدنا وأخينا في الله الشّيخ بن زاكور، حفظه الله، آمين.

«وبعد إهداء مزيد السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقد ورد إلينا مَن أراد الله له بالسّعادة الدّنيويّة والأُخرويّة عبد الله بن البَشير، بدخوله في الإسلام، فأمعنّا النّظر في حاله فوجدناه مؤمناً حقاً وراغباً غاية الرّغبة في الإسلام، فهذا ممّن يلزم الاعتناء بشأنه من عَرض أحكام الإسلام عليه وتعليمها له، ولو كانت مدّة جلوسه عندنا تتّسع ذلك لفعلنا معه ما يكون سبباً لكلّ خير، ولكنّه أسرع بالمسير. فيلزم كلّ من له رغبة في الإسلام أن يقوم بشأنه من تعليم ما يحتاج إليه. وقد أشار لي بأنّ الرّغبة إليكم أكثر، فأترجّى على سيادتكم أن تقوموا بشأنه، لا حرمنا الله وإيّاكم من الأجر، ودُمتُم في خير وسرور.

«الدّاعي لكم بالخير محمّد عابد ابن المرحوم الشّيخ حسين مفتي المالكيّة بمكّة المحميّة، م».

7 ربيع الثّاني 1312[2].

* * *

رغب مطوِّفنا عبد الرّحمن بوشناق بإبقاءنا عنده بأيّ ثمن.

قال: «أتوسّل إليك لا تتخلّ عني؛ لقد خفّفت عني آلامي التي أعانيها؛ أشعر أنك الوحيد القادر على شفائي بشكل كامل».

---

(1) هو إمام المالكيّة في الجزائر آنذاك محمّد بن مصطفى بن زاكور.

(2) هذا التّاريخ يوافق 8 أكتوبر 1894.

إلّا أن مرض مرافقي الحاج «أكلي» Akli خطير، فقد زاد احتقان كبده وخارت قواه بسبب الحمى الشّديدة؛ فعلينا العودة إلى الشّمال لكي يغيّر المناخ.

عندما فشل عبد الرّحمن بوشناق في إقناعنا بالبقاء، قرّر السّفر معنا كي يتعالج عند صديقنا المشترك الحاج عبد الرّحمن الطّبيبي، الطّبيب المغربي في الجزائر. لكن ابن عمّه أحمد بوشناق عارضه بشدّة قائلاً: «ماذا لو مُتَّ هناك وأنت بعيد عنا؟.... لن أسمح لك بذلك، عليك أن تموت هنا بين ذويك حين تأتي منيّتك».... في النّهاية اقتنع عبد الرّحمن بوشناق، لكني سأبعث له بأدوية جديدة من جدّة، وما إن أصل إلى الجزائر حتى أتباحث مع عبد الرّحمن الطّبيبي بشأن حالته.

سنكتب له وصفة طبية، وعند اللزوم سنرسل له أدوية مع حجّاج الجزائر في الحج القادم، إن شاء الله.

* * *

الرّحيل عن مكّة

مـن جديد، قمنا بطلـب الحمير، وانتظرناهـا بفارغ الصّبر أكثر من ثلاث سـاعات. وصلت في النّهاية عند هبوط الظّلام، ورافقنا أصدقاؤنا مشياً على الأقدام حتى أبواب المدينة.

أخذ أفراد عائلة بوشناق والدّرويش يمسكون بيدي كلٌّ بدوره.

بدا الحاج «أكلي» شـديد العصبية وقلقاً. أخذ يمشـي بخطوات واسـعة أمامنا، فهو على عجلة من أمره لمغادرة المدينة، ولا أعلم حقيقةً لماذا.

امتطينـا الحماريـن مجدّداً، وتعانقنا مطولاً، ثم انطلقنـا، وها نحن نهرول من جديد في الظّلام.

استحوذت عليّ أفكار سوداء، وانتقل إليّ قلقُ رفيقي، فشعرت أنّ ساعة الحسم قد اقتربت.

إنّ وجـودي في مكّة أقلّ شـبهة مـن وجودي في جدَّة، إلا أنني قمت بمغامرة سـيئة قـد يكـون لها نتائج مزعجة. لقد خرجت في يوم من الأيـام وحدي من المنزل، وفجأة أوقفني شرطي وسألني باللغة التّركية مَن أكون وماذا أفعل في مكّة.

قلت له: «حدّثني بالعربية». فكرّر سؤاله.

«أنا جزائري».

«أين تقطن؟»

«أسكن عند مطوّفي عبد الرّحمن بوشناق».

أخذني إلى مركز شرطة قريب؛ وها قد تمّ توقيفي من جديد!

سألوني مجدّداً الأسئلة ذاتها وهم يمعنون النّظر فيّ، فأجبتهم باقتضاب الأجوبة ذاتها.

سألوني عندها: «كيف حالة عبد الرّحمن بوشناق؟»

«إنه يعاني من معدته، لكن بعون الله سأعالجه، فإنني أعرف القليل في الطّب».

«إذن أنت طبيب! حسنٌ إذن اذهب في سلام». ثم أطلقوا سراحي....

كان هذا التّفصيل عن حالة مضيفي المشهور جدّاً في مكّة، كافياً تماماً.

لكنني لم أغامر بأيّ هروب آخر، أقسم بذلك، فقد شعرت بقلّة القيمة وأنا واقف هناك في مركز الشّرطة، ولا أريد على الإطلاق أن أجرّب الوضع من جديد. لكن، أعاد لي الطّريق الآن تلك المخاوف. بالطّبع لم أحدّث أحداً بهذه المغامرة، إلا أنني في داخلي كنت أخشى ما قد ينتج عن هذا الاشتباه الأولي.

على كل الأحوال وممّا لا شّك فيه، إن أرادت الشّرطة التّركية تفتيش أمتعتنا، وإن بلّغ أحدهم عنا، فمن المؤكّد أنه علينا أن نخشى تحرّيات الشّرطة وقت مغادرتنا، حيث أنها ستكون بمنتهى الخطورة، وذلك بسبب أجهزة التّصوير التي في حوزتنا.

لكن هل يمكن أن تتحقّق مخاوفي؟ باختصار لم أكن مطمئنّاً، وكنت أنظر برضا إلى المدينة المقدّسة وأنا أبتعد عنها.

كان حمارانا نشيطين جداً، فانطلقا مسرعين حتى لحقنا بالمسافرين الذين سبقونا، وهم تحديداً أصدقاء الحاج «أكلي»، يعملون كمطوّفين من طرابلس وتونس، وهم ذاهبون الآن إلى جدّة ليركبوا السّفن المتجهة إلى بلد كلّ منهم، وذلك كي يروا أصدقاءهم وكي يجمعوا التّبرعات.

على الأغلب سنبقى معهم حتى يَنْبُع، وهي المحطة الوحيدة بين جدَّة والسّويس، وقد نوينا النّزول في هذه المحطة لنذهب إلى المدينة، أما هم فسيتابعون رحلتهم حتى الشّمال.

أصبحنا أصدقاء، وذلك تماشياً مع الظّروف.

امتدحني الحاج «أكلي» مطوّلاً أمامهم، وطوال الليل، وفي كل لحظة، هناك حوار بيني وبين شخص غريب.

«حاج عبد الله». (هذا هو اسمي في الحج)

«نعم؟».

«كيف حالك؟».

«طيّبين، الحمد لله».

ويتكرّر السّؤال نفسه بعد عشر خطوات، فأجيب بذات الأجوبة.

بدا كل شيء جيداً خلال بضعة كيلومترات. واطمأنّ الحاج «أكلي».

أخذ عبد الوهاب يغني أغاني بدوية أو مغربية جميلة.

تستحوذ عليّ إحدى هذه الأغاني في كل مرة أتذكر فيها رحلتي. كنت قد سمعتها سابقاً على ظهر سفينة غلوكوس *Glaucus*، فقد كان الشّيخان البدويان يدندنانها أثناء رحلتهما إلى مكّة معنا.

لقد لحقت بي هذه الأغنية أثناء نزهاتي في المدينة المقدَّسة، فقد كانت تتكرّر على لسان جميع سائسي الحمير تقريباً.

وخلال هذه الليلة المؤلمة، ليلة العودة، أخذ عبد الوهاب يغنّيها بلا توقف.

إنّ القصائد العربية المغناة بهذا الشّكل لا يمكن على الأغلب فهمها، لكن استطعت التقاط بعض الكلمات مثل «غزال، رمل، صحراء، قلبي، حبّ، الخ»، فقرّرت، بما أنني

لـن أنام في هـذه الليلة الطّويلة، أن أحاول ترجمة النّص العربي لهذه الأنشـودة، والتي تـارة تأخذ مجرى النّواح والملاطفة، وتارة تبـدو مليئة بالغضب والحنق، وتارة أخرى نراها مليئة بحزن لا يمكن وصفه.

قمت بترجمتها هنا، كما أوحى لي غناء صديقي، بالإضافة إلى تخيلاتي....

أيها المنفى الظّالم، كان لا بدّ لي أن أهرب منك، زُلَيخة،

زُلَيخة يا لؤلؤتي، يا كنزي الجميل،

لقد هربت منك كي أموت في الصّحراء،

زُلَيخة يا لؤلؤتي، يا كنزي الغالي.

لقد حدّثتُ الغزلان عن أحزاني، زُلَيخة

زُلَيخة يا لؤلؤتي ويا كنزي الغالي.

لقد ضحكت الغزلان من دموعي، زُلَيخة،

زُلَيخة يا لؤلؤتي، ويا كنزي الغالي.

سـأموت وأنا ألعنك، زُلَيخة،

زُلَيخة أيتها الظّالمة، أيتها الشّريرة الخائنة،

لقد خنتِ عهودك العذبة، زُلَيخة،

زُلَيخة أيتها الظّالمة، أيتها الشّريرة الخائنة،

إنك غير مخلصة وناكثة للعهود، لكنك تغنّين، ثم تـنسين....،

زُلَيخة أيتها الظّالمة، أيتها الشّريرة الخائنة،

لكن لا بدّ أنك ستعذّبين بدورك، زُلَيخة،

زُلَيخة أيتها الظّالمة، أيتها الشّريرة الخائنة،

هواء المساء سيجلب لك آخر صرخة لي،

زُلَيخة أيتها الظّالمة، أيتها الشّريرة الخائنة،

وسيرهقك عذاب الضّمير، زُلَيخة،

زُلَيخة أيتها الظّالمة، أيتها الشّريرة الخائنة،

سأراك في تخيلاتي، زُلَيخة،

زُلَيخة يا ملاكي ويا حوريتي في السّماء.

للأسف، إن التّخيلات المنعشة تهرب مني، زُلَيخة،

زُلَيخة يا ملاكي ويا حوريتي في السّماء.

إنّ العطش الشّديد يتملّكني، زُلَيخة،

زُلَيخة يا ملاكي ويا حوريتي في السّماء؛

لا، إنه العطش لقبلاتك، زُلَيخة،
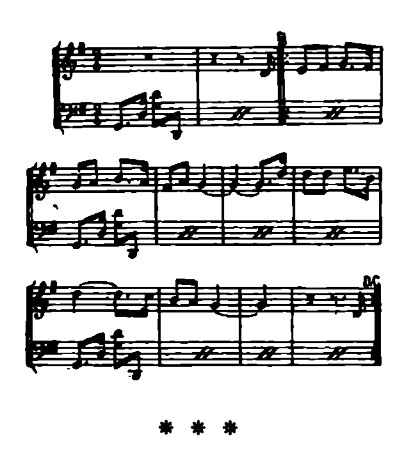
زُلَيخة يا ملاكي ويا حوريتي في السّماء.

إنّني أشرب. إنني أعيش. الحدائق النّضرة تتفتح من أجلي.

زُلَيخة يا ملاكي ويا حوريتي في السّماء.

إنها حدائق سماوية. هنا الرّاحة. هنا المتعة. إنني أموت....إلى اللقاء،

زُلَيخة يا ملاكي ويا حوريتي في السّماء.


DC

* * *

العودة إلى جدَّة

بدأت المشاكل، لقد تعثّر حمار الحاج «أكلي» وسقط، فارتمى الحاج إلى الأمام ووجد نفسه واقفاً ورأس الحمار بين رجليه؛ لم يحصل أي أذى؛ رفعناه وأركبناه، وبعد بضع خطوات، جاء دوري وقمت بذات الشّقلبة!

إنّ الضّعف الواضح لهذه الحمير مبرّر، فهي مُجهدة من قطع هذه المسافة التي يبلغ طولها 87 كم، بشكل متكرّر وبمسيرة واحدة. إنها معتادة على مثل هذه الشّقلبات، فتمكث فوراً دون حراك، جالسة على ركبها فوق الرّمل الكثيف، منتظرة بصبر حتى يأتي الفارس، الملقى إلى الأمام، فيحرّر رأسها وعنقها، ثم تقف بسرعة. لقد وقعتُ سبع مرات على هذا الشّكل، ودائماً أجد نفسي واقفاً دون أن يحصل لي أيّ أذى. لقد طفح الكيل، وفي النّهاية غضبت، فناديت بالحاج السّائس الذي يرافقنا، والذي زوّدنا بهذين الحمارين غير المُرضيين.

«لا تغضب يا أخي، إنك لا تعرف كيف تركب على الحمار، هذا كل شيء! تفضل، لنتبادل الحمير، فحماري لم يتعثّر ولا مرة».

فثرت غاضباً وأخبرته أنني درت نصف العالم، وأنني قد ركبت على أكثر الفحول جموحاً، فلست مبتدئاً بهذا المجال، إلخ.

وبهدوء أكبر أجابني:

«فلتأخذ حمار عبد الوهاب، فإنه لم يسقط أبداً أيضا، وسنرى».

فقمنا بالتّبادل، وانطلقنا من جديد....

قطعنا بضعة كيلومترات. وإلى جانبي في الليل، وقع راكب.

فقلت في نفسي: «ما هذا! إنه عبد الوهاب، حقيقة أنا لم أكن مُحسناً. من الممكن أن تنكسر رجله بدلاً مني، ألأنه الخادم وأنا السّيد؟ أهذا عدل؟».

هذا أول ما خطر في بالي، وخاصّة في هذا البلد المتآخي لأقصى الحدود، حيث لا مكان للنّفس أمام مصلحة الأقارب.

«يا لحسن الحظ، كم أنا محظوظ». هذا ما كنت سأفكر فيه لو أنني كنت في أوروبا.

أوقفتُ حماري لأساعد رفيقي؛ إلا أنني أدركت على الفور خطئي؛ إن الذي وقع رجل غريب؛ لقد أخطأت بسبب الزّيِ المتشابه. ثم عاودنا المسير.

لكنني وجدت رفاقي مهرولين في هذا الليل، وقد سبقونا بكثير.

حتى أنّ الغريب، الذي لم يتوجّه إليّ بأي كلمة، انطلق أمامي، فوجدت نفسي وحيداً على الطّريق.

أتمنّى ألا يقع حماري، فماذا سأفعل كي أقف لوحدي دون مساعدة؟

* * *

آه، يا أخي الحاج، فليحمِك الإله العظيم من الحمير ضعيفة الأرجل عندما تقوم بالحج المقدَّس إلى مكّة، وليجنبك الله الوقوع في هذا الموقف! فهو الكريم.

* * *

لكن سوء الحظ ظلَّ لاحقاً بي؛ لقد أخذ حماري يهرول مسرعاً ليلحق بالمجموعة التي سبقتني، فما لبث أن وقع بدوره.

ماذا عليّ أن أفعل لوحدي؟ كيف يمكنني أن أتسلّق هذا الصَّرح الملقب هنا براحلة الحجاز؟.

قبل كل شيء، هناك الجِلالة، وتسمّى «البَرْدَعَة» *berda* في الجزائر والقاهرة، وهي

مشدودة بحبل غليظ من الحلفا؛ ثم تأتي الأخراج الممتلئة، وعليها يوجد غطاء مثبت بشكل فرشة؛ وفي النّهاية يوجد برنُس. ويتمّ تثبيت كل هذا بحبل ثانٍ من الحلفا.

في خان القوافل هناك منصّات يستخدمها الرّاكب كي يتمكن من الصّعود على راحلته، أما في الطّريق فإنّ السّائس هو من يقدّم ركبته كمنصّة، والآن ماذا يمكنني أن أفعل كي أتسلق هذه النّقالة؟

أدركت خطورة وضعي، فنسيت تعبي، وسحبت نفسي بجهد أخير، ثم قفزت فوجدت نفسي ممتطياً الرّاحلة، وها أنا ذا من جديد أنطلق في مهمتي.

لحقت برفاقي نصف النّائمين وهم يغفون فوق ظهور حميرهم؛ عاتبتُهم بشدة على هجرهم الأناني لي؛ واستمرّ الطّريق المعتم بالمرور أمامنا، وقد زادت تعاسته بعد هذه المغامرة المؤسفة التي حصلت لي، حيث من المؤكد أن رفاقي يشعرون بعذاب الضّمير بسببها.

هذه المرة، كان لدينا وقفة في حَدّة Hadda، لكن دون أن نستريح؛ وبمسيرة واحدة، ما عدا بعض الوقفات ولمدة قصيرة عند أربعة أو خمسة مقاهٍ مصفوفة على الطّريق الذي سلكناه.

عند بزوغ الفجر وصلنا إلى مشارف جدَّة، فأقمنا بسرعة الصّلاة الأولى، والتي في الحقيقة لا تُقبل إن لم نصليها قبل طلوع الشّمس.

* * *

دخلنا أسوار جدَّة من باب مكّة على وقع هرولة دوابنا التي أخذت أجراسها تجلجل بفرح، في الصّباح المنعش.

لقد سخر مني عبد الوهاب خفية، معتزاً بنفسه أنه لم يقع ولا مرة من على ظهر الحمار الذي بادلته إياه، لكنه ما لبث أن وقع. كنا في وضح النّهار، فبدا منظره مضحكاً جداً، وهو واقف على الأرض ورأس الحمار بين رجليه، ولم أستطع منع نفسي من الضّحك عالياً.

قال لي صديقي بحكمة: «هذا ليس لطفاً منك، لقد وقعتَ ثماني مرات ولم أسخر منك ولا مرة واحدة....».

عاودنا المسير، مهرولين كالعادة، وكان السّائس متحمّساً جداً لكي يبدو مثل حوذيي مركبة الدّيليجانس diligences الموجودين عند مدخل المدينة، وهو يريد أن يبرهن للمارة أن هذه الدّواب ليست مُتعبة رغم المسافة الطّويلة التي قطعتها.

حاولت هذه الحيوانات المسكينة أن تقاوم هذا الجهد إلا أنه كان يفوق طاقتها، وفجأة وقع عبد الوهاب مرة أخرى، تقريباً عند أرجل حماري، فاجتاحتني نوبة الضّحك مجدّداً....

وردّد صديقي لومه المؤثر:

«لقد وقعتَ ثماني مرّات ولم أسخر منك ولا مرّة واحدة».

لكن ماذا أفعل؟ هل هو بسبب التّوتر الذي كنت عليه الليلة الماضية؟ أم بسبب الضّغط الذي كنت تحت تأثيره مؤخراً؟ أم هو الفرح بشعوري أنني خارج نطاق الخطر، وأنّ مخططي الجريء قد نجح؟ حقيقةً لا أعلم. ولقد استمرّت نوبة الضّحك تلك لمدة ساعتين!....



شارع في جدّة

كنت أنفجر مُصدراً ضوضاء من الضّحك الهستيري، أمام الأصدقاء الذين أتوا يهنئوننا بالعودة، وأنا أقصّ عليهم مغامرتنا والسّقوط المتكرّر الذي تخلّلها، وكنت أنتفض بشكل مرضي من الضّحك الجنوني.

وأثناء تناول الغداء؛ وبّخني الحاج «أكلي» بشدّة بسبب الفضيحة التي أشعلتُها وتصرّفي غير اللائق، فعدتُ إلى رُشدي.

* * *

عند السّاعة الثّامنة والنّصف، شعرتُ في القنصلية الفرنسية بأجمل إحساس يمكن أن أشعر به طوال حياتي. أيّ فرحة بعودتي إلى هنا، سليماً معافى، وسماع كلمات المستشار الدّافئة، وهو يهنّئني بمودّة واضحة على نجاح رحلتي.!

إنّ إرسال برقية كافٍ لطمأنة أقاربي؛ أمّي العجوز وأصدقائي في فرنسا سيكونون في منتهى السّعادة اليوم، لقد انشرح قلبي لمجرد التّفكير بذلك....

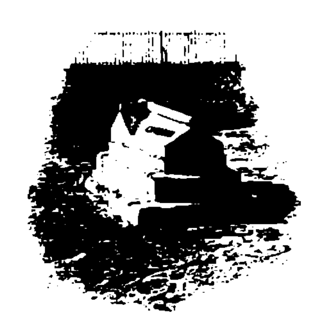
لقد تحايلت لزيارة القنصل بوجوب الحصول على تصاريح لجوازاتنا؛ وقد اختصرت هذه الزّيارة كي لا أثير الشّكوك، حيث أنّ رحلتنا لم تنتهِ بعد، فإنني أنوي الذّهاب إلى المدينة وإلى ينبع، كما اتفقنا أنا والحاج «أكلي».

وها نحن أولاء من جديد نحلّ ضيوفاً عند عبد الرّحمن أفندي. قمت ببعض الجولات في المدينة، وأنا الآن أكثر راحة من ذي قبل، مع أخذ الحذر باستمرار.

كنت أريد التقاط بعض الصّور لجدّة وخاصة قبر شارل هوبر.

أخفيت آلة التّصوير (13 X 18) في أسفل سلة، وانطلقنا.

قمت بعملي بسهولة دون أن يلاحظني أحد؛ التقطت عدة صور للأسوار، وصورة عامة للمدينة وللشّوارع، إلخ. وها نحن خارج المدينة، نمرّ بالقرب من هور (مستنقع ضحل) على طريق المقابر.



ضريح شارل هوبر

لقد استقبلنا الحارس بسهولة تامة، وستحفظ الذّكريات الورعة قريباً داخل أحد أجهزتي.

كي نعود إلى المدينة، سلكنا طريق آخر، إلا أن هذا الحرص كان ضربة قاضية بالنّسبة لنا، حيث وقعنا بأيدي دورية تركية.

هذه الدّورية مؤلفة من ضابط قائد وضابط مساعد وضابط صف وجنديين. كانوا يقومون بجولة صباحية عند مركز الأسوار، مستفيدين من رطوبة الجو.

نظروا إلى السّلة التي نحملها، واعتقدوا بالتّأكيد أننا نقوم بعملية تهريب، فسألونا عن محتواها.

«لا شيء». أجابهم الحاج «أكلي».

«وإن يكن، أرني ما بها». ردّ الضّابط بسرعة ورفع الخرقة التي كانت تخبئ الآلة.

«آه! آه! ما هذا الشّيء؟» والتفّ الجميع حولنا.

«هذا؟» أجاب الحاج «أكلي» بثقة، «إنها آلة تصوير فوتوغرافي، يستخدمها صديقي عبد الله، وهو طبيب جزائري، ليلتقط بعض المناظر للمدينة».

حدَّق بي الضّابط مطوّلاً.

لحسـن حظي، ويمكنني القول بتيسـير من المولى، كنت أرتدي لباساً لائقاً في ذاك اليوم. كنت قد اشتريت في الليلة السّابقة قفطاناً جميلاً من الحرير الأصفر، وقد ارتديته عندها للمرة الأولى، ولدي حزام لائق تمنطقت به، وانتعلت حذاءً جديداً.

حافظت على النّظرة الفاحصة، وأضفت بالعربية:

«نعم، إنني جزائري تحت الوصاية الفرنسـية، وجواز سفري عند ترجمان القنصل، حيث نقطن».

وضع الضّابط التّركي يده اليمنى على كتفي، وأخذت عيناه تبحلقان في عينيّ. وبما أنني لم أضطرب، فقد ربّت بألفة على كتفي وقال لي:

«حسن إذن، اذهب».

أوف! لم نترك له المجال الحاج «أكلي» وأنا أن يكرّرها مرتين، فانطلقنا مسـرعين، وأخفيت آلة 18 X 13 في أسفل صناديق أمتعتنا، ولم أخرجها مطلقاً في جدَّة....



جـدَّة

هذا المساء، احتسينا آخر فنجان شاي عند صديقنا الصّيدلاني. وانضمّ إلينا أصدقاء آخرون، وبينما كنا مجموعين عند عتبة بابه، اقتربت منا فتاتان بدويتان صغيرتان وطلبتا الصّدقة.

قال لي الصّيدلاني: «هما مغربيّتان؛ تمّ التّخلي عنهما عندما غادر أبناء بلدهما، تجدهما مع آخرين كثر، بؤساء مثلهما، متمركزين عند مدخل المدينة على الشّاطئ، مشكّلين قبيلة. لكن ليس لديهم أيّ مورد ليقتاتوا منه. فلنذهب لرؤيتهم، إنه مشهد محزن جداً، لكن من الجيّد أن ترى ذلك».



فتاتان بدويتان

قمنا إذن ولحقنا بالفتاتين. كانتا ضعيفتين وهزيلتين لدرجة مخيفة، وعيناهما تبرقان من شدّة الجوع. كانتا تمشيان أمامنا لتتمّا جولتهما المعتادة في جمع الصّدقات حول السّاحة.

إن يكن معهما أيّ فلس، فهما تحصلان بالكاد على قليل من فتات الخبز أو بعض الفواكه التّالفة، يتصدّق بها عليهما بعض الباعة.

كانتا تحملان في أيديهما جرّتين صغيرتين من الفخار، تريدان ملأها بالماء. لم تجازفا بالطّلب عند أول بائع، وفي النّهاية، دنتا من رجل عجوز جالس أمام دكانه، وقبلتا يديه وظلّتا تتوسّلان إليه، وبعد جهد جهيد أعطاهما الإذن بملء جرّتيهما بالماء.

ذهب العبد الذي عليه تنفيذ الأمر وهو يتمتم إلى الصّهريج، فاعترضت الفتاتان بشدة:

«لقد قال لك سيدك أن تعبئ لنا من مياه الشّرب الصّافية، وليس من صهريجك الملوث».

وبما أن العبد ظلَّ متشبثاً برأيه، فقد عادتا من جديد إلى البائع الكريم، لترجواه، فقالتا له:

«انظر، إن عبدك الشّرير لا ينفّذ أوامرك ويريد أن يعطينا ماءً من الصّهريج».

عادتا إلى توسّلاتهما لكن بلغة مضطربة. وأخيراً صدر القرار؛ ستحصل هاتان المسكينتان على الماء من النّبع، وتمَّ توبيخ العبد بشدّة على قلّة كرمه.

بدت الفتاتان البدويتان في منتهى السّعادة، وكأنهما اكتشفتا كنزاً! كانتا تزقزقان كعصافير الدّخلة fauvettes، حتى أنهما أخذتا تلعبان وتتمازحان بينهما ببراءة. يا لبؤس هؤلاء الأطفال! أيّ استهتار هذا! وكم يوجد غيرهم بمثل عمرهم على هذا الحال!

دخلتا إلى عشيرتهما، فلحقنا بهما. وجدتُ مخيماً بائساً لدرجة لا يمكن وصفها. كان عبارة عن أنقاض وأوتاد قذرة حاولوا نصبها على رمل الشّاطئ.

وجدت على الأرض مئات من الأشخاص التّعساء، لا يمتّون لبني الإنسان بصلة، مضطجعين كأنهم علب لا شكل لها، حتى أن جنسهم غير معروف إن كانوا رجالاً أو نساءً، وكأنهم يرقات.

إنهم حطام بشري من مخلفات الحج. أغلبهم من العجائز، كانوا قد لحقوا بالحجّاج، لا نعلم حقيقةً كيف، طامعين إما بالثّروة أو بالموت. أما الثّروة فخانتهم، وأمّا الموت فرفضهم.

في أيّة قذارة عاشوا للأشهر الماضية، وفي أي غموض يحيط بهم حتى الآن؟

تحت الشّمس الحارقة، هاجت عبثاً الأوبئة، وأخذت الجائحات تحوم من حولهم

لكن دون جدوى، فهم ما زالو على قيد الحياة!

أتساءل برعب، ماذا يمكن أن يأكلوا، أو حتى أن يشربوا، حيث أنني شاهدت المعاناة التي عانتها الفتاتان كي تحصلا على الماء.

فقط الجوامع يمكن أن تكون مأوى لهؤلاء التعساء في أيام البؤس الشّديد. إنّ وجودهم على قيد الحياة هنا أعجوبة كوجود النّباتات في وسط هذه الصّحراء القاحلة، فهذه الشّجيرات والأعشاب الشّوكية التي تنبت في الرّمل دون نقطة ماء، في تربة لا تصلح للزّراعة، هذا فعل الطّبيعة المدهشة.

* * *

قال الصّيدلاني: «أترى؟ إنهم مغاربة، إنهم أناس من بلدك. فقط هم مَن تمَّ التّخلي عنهم على هذا الشّكل. ففقراء الأتراك والمصريين تمَّ إرسالهم إلى بلادهم على نفقة حكوماتهم، بينما يبدو أن هؤلاء تمَّ التّخلي عنهم كلياً، حتى من الله عز وجل».

«بالطبع، إن الله ينسحب من البلاد البائسة الواقعة تحت سيطرة أناس غير مؤمنين». هذا ما قاله بمرارة أحد التّعساء الذي يبدو عليه الجوع الشّديد.

اشتريتُ مباشرة عدة كيلوغرامات من الخبز، قمنا بتقسيمها إلى قطع صغيرة، ثم وزّعناها على هؤلاء البؤساء.

إنني ما زلت أرتعد عندما أتذكر الصّوت المخيف الذي كان يصدر من تلك الفكوك المفترسة المتضوّرة من الجوع.

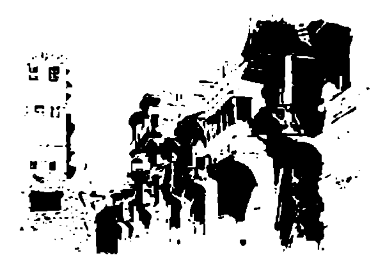
عدت، وأنا متأثر بشدة من هذه الرّؤيا الفظيعة، وطوال السّهرة كانت الأحاديث تدور حول ظلم الفرنسيين تجاه مسلمي الجزائر وتونس، أي «المغاربة» (وتعني القادمين من الغرب)، وهي تسمية مُبهمة وعامة، يقصد بها شمال أفريقيا.

لم أستطع قول أي شيء للدّفاع عن فرنسا أمام هؤلاء الجهلة والمتحيّزين، فوضعي الحرج دفعني إلى التزام الصّمت.

في حين كنت في أشد الرّغبة لأن أصرخ بالحقيقة، وأن أبيّن لهم الصّداقة المتينة بين فرنسا والشّعوب المُسلمة، هذه الصّداقة التي شغلت بال الحكومة الفرنسية منذ عهد نابوليون، حيث أنّ الاتفاق مع مصر أكبر دليل على ذلك، وهومستمرّ حتى أيامنا هذه. لم تتوقف فرنسا مطلقاً عن حماية الحجّ إلى مكّة - هذا ما اهتم به نابوليون وبوجو وجميع الحكام الحاليين....

في أيامنا هذه، ورغم المخاطر والأوبئة الفظيعة التي يمكن للحج أن ينقلها، وذلك بالاحتكاك مع الشّعوب التي تكون فيها الكوليرا مستوطنة في أشخاص أُنهكوا وعانوا كثيراً من هذه الرّحلة الطّويلة - هذا الاحتكاك يولّد كل عام، وبانتظام مشؤوم، ذات المصائب - ورغم المخاطر التي تهدّد أوروبا بشكل كامل، ما زلنا نحافظ على رحلة الحج.

فمَن أكثر من الحكومة الجزائرية أحاطت الحجّاج بالرّعاية الطّبية، والعناية الصّحية، إلخ؟ حتى أنهم يراقبون بشكل مستمرّ وسائل المواصلات، ويتأكدون من وجود مورد مالي كافٍ لكل حاج (1,000 فرنك فرنسي)، فيجب على كل راغب بالحج أن يكون معه هذا المبلغ كي يُعطى التّصريح بالحج. ماذا يمكننا أن نفعل أكثر من ذلك كي نمنع حدوث هذه النّتائج المحزنة لهذه الحماسة الدّينية المفرطة التي تدفع هؤلاء التّعساء المحتاجين إلى البؤس الذي كنت شاهداً عليه في جدة؟



بيوت عربية في جدّة

بالتّالي، بما أنّ العالم الإسلامي ما زال مقتنعاً بأن فرنسا تزرع الأشواك في طريق الحجّاج، وبما أنهم تحت اسم المغرب الكبير، يخلطون بين أهل مراكش وطرابلس الهاربين من سيطرتنا، وبين أهل تونس والجزائر الذين هم تحت رعايتنا، فلم يبق أمامنا، برأيي، سوى وسيلة واحدة، هي أن نامل من كرم مُسلمي شمال أفريقيا، بأن يقوموا في كل عام بجمع مال مخصّص لإرسال هؤلاء المنكوبين إلى ديارهم.

لكن من المؤكّد أنهم سيقولون: لماذا نهتم بأولئك غير الفطنين، الذين دون أيّ وعي يرمون بأنفسهم في مغامرة كهذه، في حين سيكون من الأسهل عليهم البقاء في أوطانهم؟

لكنني سأجيبهم أنه ليس من مصلحة فرنسا أن تنتشر في العالم الإسلامي إشاعات مُغرضة كهذه، حيث أنها ستسيء جداً للسّياسة الطّيبة التي تتبعها فرنسا في تونس والجزائر. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ قلّة بصيرتهم تتأهل بالتّأكيد تسامحاً أكبر بكثير من ذلك، وإن كانت في بعض الأوقات تدفعهم إلى الهاوية، لكنها على الأقل في ظروف أخرى، تسمح لهم بالانصياع وراء نزوات قلوبهم، دون أن يتوانوا عن أيّ عمل كريم.

أذكر بهذا الخصوص طُرفة عن النفر، تصف جيداً طيبتهم السّاذجة:

سافرتُ ذات مرة ضمن قافلة في وسط الصّحراء، لمدة تسعة أيام.

وصلنا إلى نهاية الطّريق، وبعد أن حاسبتُ الجمّالين، وزّعتُ عليهم ما تبقّى عندي من الزّاد القليل.

وكالعادة كانوا قنوعين، فقرّروا الاكتفاء بهذا القدر من الزّاد للعودة، ولم يطلبوا شيئاً من القبيلة المجاورة.

كانت مؤونتهم مؤلفة من بضعة كيلوغرامات من الفطائر السّيئة القاسية التي كان قد مضى عليها عشرة أيام، وقبضة من التّمر الجيد، وبعض الأرطال من الأشياء الفاسدة، وهذه المؤونة يجب أن تكفي ثلاثة أشخاص، في وسط الصّحراء، لمدة خمسة أيام.

وليدلّلوا أنفسهم، أخذوا معهم القليل من القهوة المطحونة، وعشرين قطعة سكّر تقريباً.

وفجأة اقترب طفل عمره ثلاث سنوات، لا يستطيع مقاومة شهوته، وطلب بلطف:
«أتعطني قليلاً من السّكر؟»

فمدَّ رئيس القافلة، واسمه علي، يده إلى الخرج وأخرج قبضة من الأطايب الثّمينة والنّادرة، ودون أي تردّد أعطاها بكرم إلى الملحاح الصّغير.

لم يعد لديهم للطّريق سوى ست قطع. مهما يكن، سيكون عليهم وبرباطة جأش شرب قهوتهم مُرَّة.

أيّ أوروبي متحضّر معروف برصانته وبعد نظره، كان سيجرّد نفسه من مؤونته ليرضي طفلاً ما؟

هيا! فلنقل بكل صراحة، هل أكرم شخص من بيننا كان سيتبرّع بأكثر من قطعة صغيرة لهذا الولد؟....

* * *

الرحيل عن جدَّة

سنغادر جدَّة. هناك قاربٌ نمساوي على أهبة الاستعداد للسفر. سنركب على متنه سرّاً عند بزوغ الفجر، وسيصحبنا فقط أصدقاؤنا المخلصون: الحاج علي عُمدة وعبد الوهاب وأحمد، صاحب مقهى في جدَّة، الذي خدمنا كثيراً، لكن في البلاد العربية الخادم يعني الصّديق....

ودَّعنا بأسف هؤلاء الرّجال الخدومين، ففي الواقع لقد بذلوا أقصى جهد لخدمتنا، دون أيّ سوء نية، وكانوا النّصير القوي لنجاحنا.

من جهتي، ستظلّ ذكرى الحاج علي عُمدة محفورة بعمق داخل قلبي؛ أقدر صدق صفاته النّبيلة وتفانيه وكرمه.... جاء اليوم الذي يجب أن أعترف له، وسيجدني بإذن الله بجانبه.



رفاقي

أبحرنا بهدوء في البحر ذو اللون الأزرق الغامق على متن سفينة «تيسبه» *Thisbé* التّابعة لشركة «لويد» النّمساوية.

تنساب هذه السّفينة الخاصة للشّحن ببطء فوق سطح المياه الهادئة، فيمكننا بشكل واضح مشاهدة أفق المدينة المقدَّسة وهو يختفي شيئاً فشيئاً....

كنت بالطَّبع ما زلت أرتدي الزي الإسلامي، إلّا آنه على قدر من الفخامة، وخصوصاً أنه نظيف. وخلال كل إقامتي في الحجاز تقريباً، كنت أرتدي لباساً رثاً فأبدو كصعلوك حقيقي، وذلك كي لا ألفت الأنظار إليّ، أما الآن، وليومين على الأقل، فيمكنني أن أتزيَّن، وأنا مستمتع بذلك....

بإمكاننا الاسترخاء الآن، والتّقليل من تحفّظنا، حيث أننا لا نعرف أحداً على سطح المركب سوى أصدقائنا المطوِّفين التّونسيين والليبيين الذين سيشاركوننا فقط الطّريق إلى ينبع.

قدَّموا لنا أسرّة في الدّرجة الأولى! إلا أنها كانت أسرّة مركب شحن، وبالطبع لا يقدِّمون فيه الطّعام.

لكن ليس هناك من مشكلة في رحلة العودة! عندما جئنا كان بين الأمتعة كلبٌ وسخ ذو رائحة كريهة، أما الآن، في الطّرف الخلفي للسّفينة، فتوجد غزالة صغيرة لطيفة، اشتراها القبطان من جدَّة، ويريد أخذها إلى «تريستِه» Trieste.



تجار هنود من جدَّة

لقـد اختفت جدَّة مـن الأفق، وتظهر الآن أمامنـا حَدّة Hadda، التـي تختـبئ خلفها مكّة.

إننا في عرض البحر.

رجعـت بالذّاكـرة إلـى صلـوات المسـاء الرّائعة في الجامـع المقـدَّس، وفي وقت غروب الشّمس المدهش.

تذكّرت الأرض الوردية، والحجّاج يمشون كأنهم أطياف على البلاط اللّامع، وهم يطوفون بورع حول الكعبة.

وما زالت الأصداء الشّجية للمآذن الأربعة، في أذني وهي تنشد بصوت باكٍ غناءها الرّتيب كل مسـاء. مقطوعة الأولى تشـكل فاصلة مـع غناء الأخـرى، فيتطاير صوت بكائهم العالي في الفضاء.

* * *

أمّا ما نسمعه اليوم فهو الضّجيج الأصمّ لمروحة السّفينة، والتّلاطم العنيف لأمواج البحر، بالإضافة إلى صفير الهواء المارّ بين الخيام والحبال.

* * *

من جدَّة إلى ينبُع

إنها السّابعة مساءً.

ترعى الغزالة بعض الحشيش اليابس.

عرَّفتُ قبطان «النّيسبِه» على نفسي، فهو نفس القبطان الذي كان في العام الماضي يقود يخت «أورورا» *Aurora* المسلّح من قبل البارون «ناتانييل دى روتشيلد» Nathaniel de Rothschild من فينا، من أجل رحلته إلى الشّرق.

وقتها كنتُ قد تناولت طعام العشاء في يخته على ضيافة البارون. لم يصدِّق عينيه، لكنه مع ذلك تعرَّف عليّ.

رحَّب بي أجمل ترحيب. تحدثنا قليلاً، ثم قدَّم إلينا كراسي لنجلس عليها!

ما أجمل العودة للرّفاهية المتطوّرة!

لقد دفعه لطفه لأن يحضر لنا فرشات للمساء، حتى أننا سنحصل على أغطية!.... ها نحن إذن عدنا أمراء!

استمرّت الغزالة بالاجترار، ثم بدأت عينها الكبيرة المفكّرة بالغفوّ.

هنالك ضابطان تركيان يصلّيان صلاة المغرب، والرّكاب الآخرون أيضاً، ما عدا القبطان وبعض النّساء التّركيات الذين امتنعوا عن ذلك.

هناك سيدة مصرية مسنَّة شديدة الورع، فهي تسبِّح الله بشكل مستمرّ على سبحتها

اللؤلؤية، وبصحبتها زنجية ضخمة.

تجلس هاتان السّيدتان براحة على فرشات وسجاجيد؛ وهما تطبخان، أو تصلّيان، أو تقضمان الرّمّان.

عندما تتحرّك العبدة السّوداء يكون شكلها مضحكاً جداً، فهي كتلة ثقيلة، لها نتوءان ضخمان من الأمام، وخريطة مجسّمة من الخلف.

أيّة فريسة هي بالنّسبة «لكاران[1] داش» Caran d'Ache، ولكنه ليس هنا!

* * *

في الأمام، تمركز الرّكاب بمجموعات جديرة بالتّصوير.

السّماور والقدور والأفران بجميع الأحجام والأنواع، تعمل في كل جهة. هناك أطفال يصيحون، وآخرون يلعبون؛ الأصغر سناً يرقدون في أسرّة من الشّبك التي تُهزّ باليد، وهو ما يسمّى هنا «هَدْهَدة»!

المطبخ عائم بالأغراض؛ سخانات شاي وقدور الأرز تزدحم فوق فرن الأستاذ كوك coq، فيقدّم حصاداً وافراً بقروش قليلة من المال.

* * *

السّاعة الثّامنة.

العشاء قد انتهى. يمكننا الآن سماع التّجشؤات تتردّد مع الحمد لله صادرة من الجوقة في الدّاخل! بدأنا نسمع بعض الأغاني العربية تدندن، انخفضت الحرارة، ويمكننا الآن أن نهيئ أمر مبيتنا....

---

(1) كاران داش اسم مستعار لرسّام كاريكاتور ساخر فرنسي هو إيمانويل پواريه Emmanuel Poiré (1858-1909)، وأصل التّسمية عن الرّوسيّة: карандаш التي تعني قلم الرّصاص، وهي بدورها منقولة عن التّركيّة: karataş التي تعني حجر الأردواز الأسود المستخدم للكتابة. ولشهرة هذا الرّسّام سمّي باسمه صنف فارهٌ من الأقلام فرنسية الصّنع.

السّاعة التّاسعة.

وضعت بالقرب من سريري إبريق فخّار لتبريد الماء، ودلّة من القصدير تحتوي على ما تبقى من الشّاي بالإضافة إلى شريحة ليمون،... وهو شراب الليمون المثلج في هذه الليلة!

تثير هذه اللوازم فضول الغزالة كثيراً، التي تستغلّ قلة انباهي لتتسلق المقعد الذي كنا نجلس عليه.

في الحقيقة أصبحت ألفتها مفرطة، فصارت تلغي أيّ تحفظ. صرخت فيها بصرامة قائلاً: «شوت»، لكنها أخذت تنظر إليّ بعينيها اللامعتين الوديعتين. لا أستطيع مقاومتها، فنهضت وصببت لها كأساً من الشّاي؛ قامت بشمّه، ثم لحست حواف الكأس، لكنها رفضت شربه. وإن صببت لها كأساً من الماء فالنّتيجة ذاتها؛ أي أن مناورتها كلها مجرّد فضول، ومن هنا استنتجت أنها أنثى غزال.

نثرنا عند قدميها القليل من التمسم المخلوط مع قليل من القمح، ووضعوا لها القليل من الحشيش كي تنام؛ لكنها تبعده برصانة وتضطجع على التمسم؛ لا بدّ أن هذه الحبيبات الصّغيرة تذكرها برمل الوطن.

أيتها الغزالة المسكينة! من سيعيد إليك رمل بلدك؟ كيف سيكون مصيرك الآن؟ إنّ البرد الضّبابي سيخدر اعضاءك الرّقيقة، كما وينتظرك السّلّ في بلاد الغرب.

أيتها الغزالة المسكينة! استنشقي آخر شذى نسمات المساء التي ما زالت محمَّلة بعطر البلد! ستبحرين خلال أربعة ايام في بحار أكثر برودة وسيبدأ عندها منفاك القاسي.

هيا! لا أريد أن أفكر أكثر من ذلك! الأمر سيّان، لم أعد أرغب من الآن فصاعداً لا بعصفور داخل قفص، ولا قرود، أو حتى ببغاءات، كل أولئك شهداء يقوم الإنسان الظّالم بخطفهم من الطّبيعة فيسلبهم حريتهم، ثم برحمة كاذبة يمدّد لهم فترة احتضارهم.

* * *

الساعة الحادية عشرة.

الجميع نائمون وأنا أحلم....

* * *

ينبُع البحر

ها هي ذي يَنبُع البحر وهو ميناء المدينة المنوّرة، كما أنّ جدَّة ميناء مكّة.

اقتربنا، فوجدنا منظراً خلّاباً ينبسط أمام أعيننا؛ هناك عند الأفق الشّمالي، جبال مصفوفة بشكل غريب، لونها كلون جلد ثعلب البحر؛ ويوجد بينها وبين البحر سهل صحراوي يرسم رقعة مسطّحة من الرّمل الذّهبي؛ والبحر يعكس هذا الذّهب فيظهر عليه لون الزُّمرُّد بالإضافة للون الأزرق الزّاهي.

تبدو المدينة الصّغيرة ذهبية أكثر حتى من السّهل، وترتفع على بضعة قامات عن الشّاطئ، بينما يرتسم الظّلّ الدّقيق للمنارتين بشكل جانبي على القاع المُعتم للجبل.

لون السّماء أزرق حليبي، والحرارة مُحرقة.

جال المركب ببطء بين الشّعب المرجانية، التي كما في جدّة، تبرز من هذا الشّاطئ الموحش.

إنها تحيط هنا بالممرّ الضّيق الموصل إلى الميناء. يدير القبطان أمر إرساء المركب بمهارة، ثم رُميت المرساة.

راقبت بشرود كل هذه التّفاصيل، فإنّ قلبي منقبض. لقد صرَّح لي الحاج «أكلي» الآن بقراره النّهائي، وهو أنّه لن يستطيع مرافقتي إلى المدينة.

كان مرض الكبد الذي يعاني منه بشكل قاسٍ، يتفاقم يوماً بعد يوم بسبب حرّ الصّيف الشّديد.

إنّه ضعيف جداً، ولن يتحمّل مجرّد الفكرة القاسية بوجوب قطع خمس مراحل على الجمال، وهي المسافة الفاصلة بيننا وبين المدينة الثّانية للإسلام، حيث قبر النّبي ﷺ، المدينة المنورة.

بالكاد رضي النّزول إلى الشّاطئ فذهب لرؤية صديقه القديم شعبان Chaaban، وقام بجولة صغيرة في المدينة.

وبشرود أكبر، جُلتُ الشّوارع الفقيرة والأسواق القذرة.

إنّ التّجارة ليست نشطة في ينبُع، حتى أنه لا يوجد سوى تجارة الجملة، أما تجارة البيع بالمفرّق فمعدومة.



ميناء ينبُع البحر

تأتي البواخر محمّلة بالأرُز والقمح أو بالقماش، فتفرغ حمولتها على رصيف صغير حالته لا بأس بها، ومن هنا تأتي قوافل الجمال كثيرة العدد لتحمل جميع الطّرود، كأنها أسراب من النّمل المُجدّ، على شكل موكب كبير، فتنقلها عبر الصّحراء إلى المدينة.

توجد سفينة إنكليزية راسية بالقرب من سفينتنا. إنها محمَّلة بالقمح المُرسل من قبل سلطان القسطنطينية، ذي الكرم الواضح، إلى حجّاج العام القادم.

قيل لي إن السّلطان يقوم في كل عام بنفس العمل، فهو يرسل سفناً كاملة محمَّلة بالحنطة والزّبدة والعسل والزّيت والزّبيب والزّيتون، إلخ، مخصّصة لإطعام قوافل الحج بسخاء. فليبارك الله السّلطان!

* * *

وصلنا في ينبُع خبر وفاة شخصية مهمّة في المدينة هو سي خالد جَمَل اللّيل Si Khaled Djama el Lil، وهو صديق عزيز لابن رَشيد، ملك نجد[1].

أشاد مَن معنا من أهل المدينة عالياً بالمجد الذي حقّقه ابن رَشيد هذا.

«إنه ملك قوي جداً! تجده في حروب مستمرّة ويكون مستعداً لها أحسن استعداد، لكنه عادل وعظيم!

«وهكذا، ذهب تاجران من بلدنا مؤخراً للتّجارة في مملكة ابن رَشيد. إنّ المسافة الفاصلة بين المدينة وعاصمة مملكته تلزمها تسعة أيام من المسير؛ أول يومين يكونان في الأراضي التّركية، والسّبعة الأخرى تكون فى أراضي المملكة العربية. لم يكن التّاجران قلقين مطلقاً لا أثناء الرّحلة ولا حتى في الإقامة عند ابن رَشيد. وفي طريق العودة لم يكونا بالكاد وصلا إلى الأراضي التّركية حتى تمّ اغتيالهما، بينما كانا يعامَلان باحترام شديد خلال مسيرهما سبعة أيام في أراضي المملكة العربية، رغم كونهما أغراباً.

«غضب ابن رَشيد جداً من الحدث، فأمر قبائل هذا البلد بالانضمام تحت لوائه مع

---

(1) يعني الأمير محمّد بن عبد الله بن رَشيد، سادس أمراء إمارة حائل في جبل شمّر وأقواهم على الإطلاق في تاريخ هذه الإمارة الذي امتدّ بين 1834-1921. تولّى بين 1873-1897. انظر حوله ما كتبه الرّحالة البريطانيّة اللّيدي آن بلَنت في كتابها القادم في هذه السّلسلة: «حجٌّ إلى نجد» *A Pilgrimage to Nejd*.

رفض دفع الضّرائب للأتراك.

«وصرَّح قائلاً: «إنني أطالب ببسط سيطرتي على قبائلكم، ما دام الأتراك غير قادرين على تأمين الحماية لكم».

«من الآن فصاعداً أريد أن أعتني بكم، كما أريد أن تكون لي السّلطة المطلقة على جميع الأراضي حتى نصل إلى مسافة يوم من المدينة».

«إلا أنّ القبائل لم تستطع التّمنّع عن دفع الضّرائب للأتراك، فاشتدّ غضب ابن رَشيد، ودمَّرها رأساً على عقب، لتكون عبرة لمن اعتبر.

«قال لهم: «عندما أتكلم يجب أن يُنفذ كلامي، فإما الطّاعة أو الموت...» ولم يحقن دماء أي كائن حي.

وأضاف أهل المدينة أنّ السّيد خالد جَمَل اللّيل Djama el Lil كان صديقه الوفي.

«كان رجلاً عادلاً قوياً! وكان دائماً في صحبته اثنا عشر عبداً، يشتريهم بأيّ سعر كان، ويختارهم من بين الأقوى والأشدّ. كان يعيد الحق إلى أصحابه دون أن يُطلب منه - حتى إنه ينفذ حكم الموت أو الحياة من غير أن يولي الأتراك أيّ اهتمام.

«في كل يوم، في ساعة محدّدة، كان يقف عند عتبة داره، ويرفع سيفه عالياً فوق رأسه ويصرخ:

«مَن لديه أيّ مطلب؟ مَن يريد أن يشتكي من أي ظلم واقع عليه فليتقدّم دون خوف؛ إن كانت قضيته عادلة وكلماته صادقة، فسأعيد له حقه مباشرة، بسيفي هذا الذي يلمع بوضوح ونقاء! وأنتم يا سباع الليل (اللّصوص) فلترتعدوا خوفاً! سأحصد رؤوسكم كما تُحصد سنابل القمح...».

ثم بيده الممدودة كان يحرك حسامه على شكل رفرفة جناح عصفور، ثم يضيف قائلاً:

«يا أصداء بلاد العرب، فلتردّدي صوتي في كل الاتجاهات وفي الصّحاري، كي

يعلم الجميع أنّ هنا مكان العدل، وأنّ الله يحمي المضطهدين».

«فما كان من أصحاب الشكاوي سوى الاقتراب منه، أمّا سباع الليل ففرّوا مرتجفين. ها هو ذا قد مات الآن. الله هو القاهر الجبار. لكننا سنحسّ بمرارة بالفراغ الذي خلفه ضياع عدالته.

لا بدّ أن الله يتخلى عن العرب بما أنه يتوفى هكذا رجال. إلا أن ثقتنا بالله ستظلّ راسخة، فهو الكريم العزيز الرّحيم.

«فلنترحم على السّيد خالد جَمَل اللّيل، ولنخضع لإرادة الله».

* * *

بالنسبة لي، أرغب كثيراً بالتّعرف على ملك نجد، ابن رَشيد هذا، فهو ملك من زمن آخر ومقاتل مرعب ورجل معروف بفضيلته - إنني منزعج جداً من العائق الذي يعترض طريقي فيجبرني على تأخير هذه المرحلة الأولى نحو جزيرة العرب الوسطى، والتي يدفعني إليها رغبات قوية دفينة. وعاهدت نفسي بالعودة ومحاولة الدّخول إلى قلب هذه الصّحاري الموحشة والمنغلقة على نفسها، لكنها في الوقت نفسه شديدة الجاذبية....

لكن للأسف! في الوقت الرّاهن، سأودّع الحلم الذي طالما جال بخاطري، وسأودّع أمنيتي في الحصول على حجارة من صَرح الآثار العربية المبنية بكدٍّ شديد!

من الغريب أنني لم أشعر بأيّة فرحة عندما قال لي أشخاصٌ من أهل المدينة: «إن كنت مهتماً بالأحجار المنقوشة، فإنها موجودة بكثرة في المدينة. ويوجد جانب كامل من حصن، حائطه مبني من الأحجار المحفور عليها بنقوش قديمة جداً جداً!.. تعود لزمن الحروب مع العبرانيين والرّوم....»

كيف يمكننا أن نصدق أنّ بعض الآثار النّادرة التي تحوي هذه الكتابات الثّمينة، موجودة فقط بين أيدي علمائنا، كان قد جلبها الشّجاع هوبر من مدائن صالح[1]. إلا

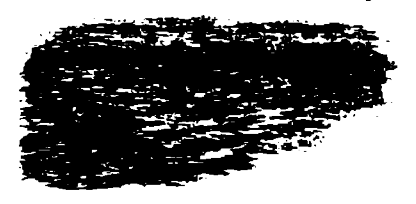
---

(1) بالأحرى يقصد حجر تيماء ذا النّقش الآرامي الشّهير الذي حصل عليه هوبر من تيماء ونقله إلى متحف اللوفر.

أننا لا نملك شيئاً من آثار المدينة، حيث أنه من الممكن أن يجد العلم فيها اعترافات نادرة.... رسالة، كانت قد كتبت!

علينا الانصراف!....

رُفعت المرساة فهربنا!



قوارب عربية في ينبُع

لقد ساعدت في أعمال الإبحار وكأنني في حلم، بالمثل كانت المغامرات الصّغيرة التى حصلت معي على الشّاطئ، والتي كانت نتيجة هذا اليوم:

قبل كل شيء هناك محادثة عنيفة بين قبطاننا وأحد سكان ينبُع، وهو شخصية غريبة، يبدو أنه يمثل عدداً كبيراً من شركات الملاحة.

هذا الوكيل العام، والتمّار البحري، والمحمّل، وصاحب السّفن، والمقاول، إلخ، محمّد بورديف Mohammed Bordiff ، إذ من المفروض مناداته باسمه الكامل، هو الشّخصية الأغرب التي من الممكن أن نتصوّرها. إنه ضخمٌ ذو جسد قويّ رشيق وصلب العود، بشبه الحمّالين الذين يديرهم، هيئته مريعة بشكل فظيع، ولباسه رثٌّ جداً.

يعمل بيديه في ما يخصّ الحركة أو في التّنضيد، رغم كونه السّيد المطلق لمئات العمال، والعبيد حتى....

لم يوحِ بأيّة ثقة لقبطاننا الذي عامله بوقاحة واضحة.

يبدو أنّ قبطاننا قد أخطأ، فقد كان من الممكن لو أراد، أن يعبئ له الرّجل عنابر السّفينة بالبضاعة، وبأجر لا بأس به. لكن على العكس، سارت الأمور بشكل سيئ، فقد اختلفا على بضعة قروش. تعب القبطان من هذه النّقاشات الصّاخبة، فانساق مع التّيار، ثم أعطى الأمر بالإقلاع.

إنّ مرشد السّفينة غائب، لا بدّ أن ننتظره. وعندما ظهر، حصل مشهدٌ جديد مع القبطان، لقد نزل على الشّاطئ دون إذن، فوبّخه بشدة.

قال لنا: «أترون كيف يعاملني هذا الكافر؛ في حين أنه، خلال ربع ساعة، ماذا سيبقى من سفينته، لو أردت ذلك!...».

ولمعت عيناه السّوداوان ببريق أصهب، فتذكرت حطام السّفن في البحر الأحمر، وارتعدتُ رغماً عني....

اكتفى بالرّدّ على القبطان قائلاً: «خلال تسعة عشر عاماً في البحرية لم أُعامَل مطلقاً بهذا الشّكل. لكن، لا إله إلا الله، الله أكبر، هو سيد الكون والمتحكّم بمصائرنا».

* * *

بهدوء تام وبسرعة منخفضة جداً، اجتزنا الممرّات الضّيقة والخطرة تحت العين اليقظة للكابيتين، الذي كان بالطّبع يراقب الشّاطئ... والمُرشد.

* * *

السّويس

بعد يومين رسـونا في ميناء السّـويس. ودّعتُ القبطان، وبهـدوء تام نزلنا إلى خليج مياهه من الرّصاص المصهور.

في البلاد المصرية لا يتحمّسـون مطلقاً لاستقبال المسـافرين المسـلمين الفقراء، والموظفـون يعملون علـى الطّريقـة الإنكليزية، وهـم متحزّمون بزيّ مثير للسّـخرية، ويعاملوننا باحتقار.

كانوا يتصرفون على راحتهم كثيراً، وقد غضبت من موضوع تصريح جواز السـفر، وموضوع الحقوق الصّحية، إلخ، وهي إجراءات شكلية يبالغون فيها بإرادتهم، فيأملون بذلك الحصول على البقشيش....

ها أنا ذا أخيراً في باحة مباني شركة القنال. لقد تغيّر مظهري كثيراً، حتى أنه لا يمكن لأحد أن يتعرّف عليّ مباشرة. ثم إنها فرحة الحصول على مصافحة جيدة وقوية:

«كيـف عـدتَ بهذه السّـرعة! أيّة هيئة شرسـة تظهر عليـك! إنك مغطى بالسّـواد يا عزيزي...».

إننـي أرتـدي برصانة اللباس العربـي التّقليدي، والذي أصبحت الآن أحبه وأشـعر بالرّاحة لدى ارتدائه. فأجبت بأجابات مقتضبة، كبدوي جلف متصلّب.

عند المسـاء، في المسكن المريح الذي نزلتُ به حيث استُقبلت بمودة خالصة محاطاً بخدمي المصريين، استكملتُ حلمي عن الشّرق، ولم يجرؤ رفاقي على مقاطعتي.

تأمّلتُ مطولاً خليج السّويس، بلون مائه الأخضر الزُّمرُّدي، والكتل الجبلية الدّاكنة لخليج عتاقة Attaka عند غروب الشّمس؛ ثم حان وقت الشّفق على البحيرة الشّاطئية، حيث تضفي الأشعة الذّهبية للمغيب لوناً ذهبياً على المنازل الرّمادية الفقيرة. إنّ الهواء صافٍ لدرجة أن ألوان ملابس الأولاد الذين يلعبون على الرّمل كانت تهتز فتظهر كأنها حجارة نفيسة، فتلألأ بين الذّهب المنثور في كل مكان.

ثم حلَّ الظّلام تدريجياً، مضيئاً بشكل خفيف الأثواب الزّرقاء الطّويلة للفلّاحات.

تأمّلتُ هذه المدينة الحدودية بين عالمي الشّرق والغرب.

من جهة، المدينة العربية فقيرة وبعيدة عن الأصالة، ضائعة في عزلة الصّحارى.

وفي الجهة الثّانية، توجد المدينة الصّناعية التّابعة لشركة القنال[1]، بأحواضها، والأذرع الضّخمة لجرّافاتها، وورشاتها، وكأنها قرية من النّمل لكنها أوروبية.

يزيل القنال وحدة الصّحاري الشّاسعة والعميقة التي تحيط بهاتين المدينتين؛ واحدة من زمن الماضي الغابر، التي أخذ رمل الصّحراء الواسعة في إخفائها شيئاً فشيئاً؛ أما الثّانية، فهي تمثل الحاضر في حماسه ونشاطه، والمستقبل في غموضه.

* * *

في السّويس، كان لي شرف مقابلة ابن الشّريف الأكبر لمكّة، قادماً من القسطنطينية حيث أتمّ مراسم زواجه.

ذهبت لرؤيته على متن «المدينة»، وهو قارب والده، فقد كان يقطن فيه منتظراً سفره إلى جدَّة.

قدَّمني إليه الحاج «أكلي»:

---

(1) كانت قناة السّويس الصّنعية الشّهيرة حديثة عهد آنذاك، حيث تمّ شقّها بين عامي 1859-1869 وكان لفرنسا الدّور الكبير في ذلك، ومدير المشروع فرديناند دي ليتيس Ferdinand de Lesseps الذي نال امتياز الحفر كان في السّابق معاوناً لقنصل فرنسا بمصر مسيو ميمو M. Mimaut.

«رفيقي عبد الله كورتيلمون. لقد قطع حتى الآن جزءاً كبيراً من العالم الإسلامي. إنه صديق في الإسلام.

«إنه ينشر في بلدنا كتباً تصف الشّرق، على أمل أن يحبّه النّاس بعد أن يتعرّفوا عليه، وهذا هدف رحلاتنا.

«إنه يلتقط صوراً للبلاد التي نجتازها، فباستخدام هذه الوسيلة يكون أميناً عندما يصفها في كتبه».

أجابه ابن الشّريف الأكبر: «آه! إن رفيقك يعرف كيف يلتقط الصّور، جيد جداً، فقد اشتريت آلة تصوير من القسطنطينية، سيجرّبها ليقول لي إن كانت جيدة».

في اليوم ذاته جهزت المختبر، أدوات تحميض وتثبيت ألوان، إلخ، في غرفة معتمة. صوَّرت «المدينة» وبواسطة القليل من برومور الجيلاتين gélatino-bromure، استطعت أن أريه على الورق صورة موجبة، بعد حوالي نصف ساعة من أخذ الرّوسم (الكليشيه) أمام عينيه.

هذا ما منحني ثقته على الفور، وبالأخص ثقة مستشاريه، الشّيخ رشيد Raschid من مكّة، والسّيد إبراهيم ابن السّيد[1] Hassad من المدينة.

يبدو الشّيخ رشيد، صاحب الوجه الذي يشع ذكاءً، ملمّاً بعلومنا الحديثة أكثر بكثير ممّا نتوقع، إلا أنه بدا مندهشاً من البراعة التي أنجزتُ بها التّجربة.

قال لي: «إنني أعلم أن الكليشيه على الزّجاج يجب أن تكون جافة تماماً قبل أن نتمكن من السّحب عليها، وتجفيفها يأخذ دائماً وقتاً طويلاً. فماذا فعلت؟»

شرحت له كيف تعاملت مع الورق المبلّل وحتى على الكليشيه المبللة. فهم العملية جيداً، وهنّأني على مهارتي.

(1) من الصّعب معرفة ما يقصد المؤلف بهذا الاسم، فهو يستخدم حرف H للتعبير عن العين بالعربية، أم هل يقصد الحاء هنا؟

منذ تلك اللحظة والشّيخ رشيد يوليني اهتماماً واضحاً؛ وأنا كلما اختلطت به أكثر زاد إعجابي بشخصيته النّادرة.

إنه طويل نحيل ذو عضلات مفتولة، رأسه مرفوع دون أي عجرفة، جبينه عريض، نظرته مباشرة وواضحة؛ إنه من أكثر الأشخاص رجولة الذين شاهدتهم في حياتي.

إنه من الجنس العربي النّادر جداً. أشعر عندما أكون في صحبته، كأنني في حضرة أحد كبار مسلمي الغرب في إحدى الملاحم العربية.

إنّه بسيط جداً في ملبسه، لكنه على درجة عالية من الرّقي.

وكم يبدو التّاج المذهب والحرير العربي الأسود ملائماً له!

دعاني في حضوره، ابن الشّريف الأكبر، لمقابلته في مكّة. قال لي: «سأعلّمك القرآن الكريم، وبالمقابل ستعلّمني التّصوير».

كان الشّيخ رشيد يراقبنا على التّوالي، الواحد تلو الآخر. لم ينطق بأي كلمة، لكن نظرته العميقة بدت وكأنها تقول للشّريف الشّاب:

«على رِسلك يا صغيري، لن تلتقط الكثير من الصّور في مكّة، وسأحرص على ذلك».

وكأنه يقول لي:

«لن تنخدع بما يقول، أليس كذلك؟»

كنا متفاهمين جداً، وازداد تقديرنا لبعضنا البعض أكثر فأكثر.

أخذت أفكر، يبدو أن هذا النّبيل المنحدر من الجنس الأصيل معه حق باعتراضه اللطيف، لكن الصّارم، وذلك رغم ثقافته الواسعة، على ما نطلق عليه اسم التّطور.

أدرك الشّيخ رشيد أن المسافة الفاصلة بين حضارتينا والتي تبلغ اثني عشر قرناً، لا يمكن اجتيازها دفعة واحدة، فالشّرق يحاول مجاراة الحضارة الحديثة كطفل صغير يريد تعلّم المشي بسرعة فائقة.

عندي بين يديّ مثال واضح!

ظلّ ابن الشّريف الأكبر طوال النّهار منهمكاً في فحص فهرس صناعي، اسمه «محفوظات تجارية». أعتقد أنه كان يتفحصه بفضول كبير، وطرح علينا مجموعة كبيرة من الأسئلة عن كل الصّور التي يراها.

يحتوي هذا الفهرس على كل ما يُنتج ويباع في أوروبا، ابتداءً بالسّيارات وانتهاءً بالجوارب الصّوفية، مروراً بلصقات الأفستين (absinthe مشروب كحولي) أو الكونياك وماركات الشّمبانيا والرّكائز الثّلاثيّة وعلب الموسيقا.

يوجد فيه كل شيء؛ عربات يد ومعاول وآلات صنع الثّلج والليمونادة والمياه الغازية!....

لقد بقيت في صحبة الشّريف الشّاب يومين كاملين تقريباً، أفسّر له كل ما يراه، أو بالأحرى كل ما كان دائماً يرغب به.

وبشكل خاص هناك آلة لصنع الثّلج، وأخرى لصنع الليمونادة الغازيّة. لقد اشتهاها بشدّة وأصرَّ على طلبها.

حاولت عبثاً أن أفهمه صعوبات تشغيل هذه الآلات التي تصنع مياه زِلتس Seltz والليمونادة، وبالمقابل أظهرت له ميزات آلة بريت Briet، حتى أنّني قدمت له رسماً إجمالياً لها، لكنه أراد، وبأي ثمن، تعبئة المشروب في قوارير «كي تصدر صوت پوف» عندما يقدّمها لرفاقه.

هذا ما يلفت انتباه هؤلاء الأطفال الكبار والملقبين باسم الشّرقيين، من بين جميع علومنا. وقبل أي شيء آخر، فهي ترضي نزواتهم الغريبة جداً. لكن كم من مرّة أوصلهم ذلك إلى الخراب، وكم عدد العواقب الوخيمة لهذا الاستعجال المتأصّل في طباعنا، قد سجلها التّاريخ في مصر وسوريا وتركية!

إن العلوم الحالية هي العدو الحقيقي لجنسهم القديم، هي عدو مخيف. وإنهم يقومون بإدخاله بأنفسهم إلى عُقر دارهم، دون أن يشعروا، فيبدؤون بأخذ قوارير المياه

الغازية غير المؤذية، ثم ينتقلون إلى السّكك الحديدية، حتى يصلوا إلى الدّيناميت[1].

لهذا، عندما يسكن الرّجل الغربي المفكر عندهم، يطرح على نفسه هذا السّؤال: هل زوبعة التّطوّر التي تجتاحنا، هي خيرٌ للإنسانية؟

إنّ العلوم الحديثة قد طوَّرت الجانب المادي للوجود، وأزالت الآلام، وزادت الرّفاهية، وذلك دون منازع؛ وأصبح الإنسان يستطيع قطع مسافات لا يمكن تصديقها وبسرعة البرق. لكن بالمقابل، ازدادت الاضطرابات، وتسارع نبض الحياة، وتفاقم القلق[2]، وفوق كل ذلك، هنالك عدم إشباع دائم!....

بينما تعيش شعوب الشّرق البسيطة دون همّ، فلا يتغيرون، بل يتعايشون مع مناخهم وهو مفضل لديهم، ما يشغلهم فقط هو حفظ الأنواع.

ليس لديهم طموحات مفرطة، يتقبلون الحياة على أنها ممرّ صغير، وقلبهم مملوء بالأمل بحياة مستقبلية تكون أفضل، حتى إنهم يحلمون بها بشكل مستمرّ، وخاصة عند المساء عندما يتأملون سماءهم الجميلة المرصَّعة بالنّجوم....

لكن أين تكمن الحكمة الحقيقية؟....

* * *

هناك نوع من التّعاطف يجمعني مع الشّيخ رشيد، لا بدّ أنه بسبب تشابهنا الخفيّ، فإنني أرى ثقته بي تزداد يوماً بعد يوم. لقد أخذ عليّ عهداً بأن أذهب لزيارته في مكّة، وبالمثل عرض السّيد إبراهيم أن يكون مضيفي عندما أذهب إلى المدينة.

إن هاتين الدّعوتين مغريتان جداً، وبالأخص دعوة السّيد إبراهيم الذي يمثّل في المدينة الشّريف الأكبر لمكّة. لكن هل من الممكن في يوم من الأيام أن أفي بوعدي، خاصة الآن وقد أفسدتُ أعمالي بغباء كبير، بسبب بعض المخبرين الصّحفيين الطّائشين، أو حتى الخبيثين؟

---

(1) كتب المؤلف: في العام الماضي، نسف العرب الثّائرون في اليمن محكمة قاضي صنعاء بالدّيناميت.

(2) ليت شعري، إن كان هذا مايراه الكاتب في عام 1894، فما تراه الحال اليوم بعد 118 سنة؟

ما زال هناك سوء فهم كبير عند كثير من المسلمين، بسبب رحلتي هذه، رغم أنه بعد عودتي كما قبل سفري، لم يصدر مني لا في تصرفاتي ولا في أقوالي أيّ نوع من التهكّم بشأن أي شيء يخصُّ الإسلام، والذي تابعت دراسته برفق وبلطف تام.

إنني أعتمد كثيراً على هذا الكتاب لأزيل سوء التّفاهم المؤسف هذا، وإنني أنتظر بثقة كبيرة اليوم الذي سأتمكن فيه من تحقيق حلمي الجميل، أتمنّى ذلك، ألا وهو الذّهاب إلى قلب الجزيرة العربية، إلى نجد عند ابن رَشيد.

* * *

لقد اغتنمتُ فرصة إقامتي في السّويس لأتمكن، بتمعّن أكبر من أي رحلة سابقة، من دراسة حياة فلاحي مصر، وذلك باختلاطي بهم.

إنّهم فلّاحون مساكين! التّواضع متوارث عندهم من عصور سحيقة، لقد ظلّوا أبداً تُعساءَ وعبيداً في هذا البلد الخصب.

مصير غريب لهذا الشّعب الذي ظلَّ على مدى عصور مضت، مطمع جميع الغزاة. واليوم، إنهم تحت الوصاية الأوروبية، متذرعين بوجود دَين تصل قيمته إلى أربعة مليارات، ومن المفترض تسديده، بينما أمتنا الأوروبية، حرّة أو متحرّرة، عليها دَينٌ أكبر بكثير من هذا المبلغ!

مساكينٌ هم فلّاحو مصر!

بينما يشتري الأوروبي منتجات أرضه بثمن بخس: البصل مثل طائر السّمّان الحي، والقمح والقطن والذّرة.

يأتي موسم سيئ فيعاني الفلّاح من مجاعة لا يمكن تحملها.

وإن كان الحصاد جيداً، فإن السّعر المنخفض للبيع بالكاد يمكّنه من العيش.

هذه نتيجة «المحميات» التّابعة للمجتمعات المتقدّمة، التي حسب قولهم تقود وتنير، لكن بقوة السّلاح، هذه الأعداد الغفيرة البسيطة والسّاذجة....

من حســن حظّ هذا البلد أنّ هناك نخبةً من الشّــباب يكنّون عاطفة جيّاشــة لوطنهم، ويعملون بجهد في سبيل نهضة الفلاح، وتحرير بلادهم.

إن كان من الممكن تحقيق ذلك من النّاحية الإنســانية، فإنهم ســينجحون؛ علينا أن نتمنّى بشدّة تحقيقه في فرنسا. على كل الأحوال لقد أُنشئت هذه الفيالق الشّابة الدّاعمة للوطن، في بلدنا، وخاصة في مدارس الحقوق.

* * *

العودة إلى فرنسا

أعادتني سفينة ملبورن *Melbourne* التّابعة لمؤسسة النّقل البحرية إلى الوطن. وأخيراً وطئتُ أرض فرنسا.

إن الطّقس في مرسيليا ضبابي وغائم، حتى أنّ أمطاراً خفيفة تساقطت. أخذت أتذكر بقليل من النّدم بلاد الشّمس والسّماء الزّرقاء، رغم الاستقبال الرّائع الذي حظيت به، والمعاكس تماماً لإقامتي البائسة في الحجاز.

تصفّحتُ بعض الجرائد؛ ما زالت هناك الاضطرابات ذاتها، والشّغف العقيم ذاته....

قرأتُ في العربة قصة حبّ مؤثرة لروسني Rosny، لكن الطّقس بارد، وإنني ارتجف.... ألقيت نظرة على بوّابة العربة التي تقلّني بأقصى سرعة باتجاه باريس.

يلمع أمام عينيّ اللون الذّهبي المتلألئ لخريف الضّواحي، لكن السّماء رمادية ومنخفضة – وادي سان- شاما Saint Chamas ينكشف أمامي، إنه منظر رائع. لكن منازل هذا البلد رمادية اللون، وهنا يتمّ تصنيع البارود....

كما هو الحال في «پا ديه لانسييه» Pas-des-Lanciers، ما زال تهديد الحرب قائماً؛ طرق استراتيجية تتداخل مثل زردات شبكة فولاذية.

إنّ «پا ديه لانسييه»، أيضاً صحراء، لكنها صحراء مصفّحة بالحديد، هناك الكثير من التّهديدات ومن المستقبل الغاضب....

أين هي صحرائي زهرية اللون، وأين هم الجمّالون الطّيبون؟....

إلا أنّ فرنسا جميلة وقلبي يدقّ لرؤيتها.

كـم هي خصبة الأراضي هنـا في ضاحية تاراسكون Tarascon، وما أكثر الحدائق والأسيجة الصّغيرة! هناك جوّ من الرّخاء يعمّ هذه الحقول الشّاسعة المزروعة بشكل كثيف، فتعطي صورة واضحة لفرنسا الغنية المجدّدة والمزدهرة، بلد الخصوبة الغزيرة التي لا تنضُب. لكن للأسف! ينقصها فقط، قليلٌ من الشّمس ومن الحب....

حبٌّ للأقارب، حبٌّ للحياة البسيطة والسّعيدة، حبٌّ للأهل والعائلة، ومن الممكن حبٌ لله....

الإله الواحد عند المسيحيين والمسلمين، سيّد الكون الجبّار والرّحيم.

* * *

ملحق

إن الرّواية التي قمتُ بكتابتها، بكل أمانة لذكراياتي الدّقيقة، تحتوي فقط على انطباعاتي الخاصّة كمسافر، والحوادث البسيطة التي اعترضتني أثناء الطّريق.

فأعتقد أنه من الجيد الآن أن أنهي هذا العمل بملحق، أسجّل فيه بالإضافة إلى المعلومات التي جمعتُها عن مكّة، ما كان معروفا سابقاً، وأن أقوم بجمع الوثائق المهمة والمبعثرة في مختلف الأعمال التي تحدّثت عن هذا الموضوع، كي يكون القارئ عند انتهائه من هذا الكتاب على علم بكل ما نعرفه اليوم عن هذا الجزء الغامض من جزيرة العرب.

إنّ عملي هذا ميسّر جداً بفضل آخر أعمال السّيد الدّكتور بروست Proust، «التوجّه الجديد للسّياسة الصّحية»[1]، حيث استعرض فيه أهم الأوبئة وأصلها وسببها، وقد اضطر لتخصيص فصل من الكتاب يتحدّث فيه عن الحج إلى مكّة.

لقد جمع في هذا الفصل وبمنتهى النّزاهة، كل ما قلته أو نشرته أنا وأسلافي، عن المدينة المقدّسة.

* * *

إنّ أسلافي المشهورين، أي الذين نشروا بعض الكتابات عن أسفارهم، هم:

---

(1) عنوان الكتاب بالفرنسية:

L'Orientation nouvelle de la politique sanitaire.

بوركهـارت Burckhardt (سويسـري)، وكان أول مـن وصف المدينة المقدّسـة. زارها عام 1814؛

بُرتون Burton (إنكليزي)، وهو ضابط في خدمة الشّركة الهندية، كان قد قام برحلة استكشافية إلى الحجاز عام 1853 . وقد حضر الحج إلى مكّة والمدينة؛

ليـون روش Léon Roche (فرنسـي)، المترجـم الرّئيسـي للجيـش فـي أفريقيـا، كان الماريشـال بوجو Bugeaud قد أرسله في مهمّة لدى الشّريف الأكبر في مكّة عام 1837.

كنـا نخـوض حرباً ضارية في أفريقيـا، وبالإضافة إلى كونها مُميتـة فهي غير مُجدية بالنّسبة للمسـلمين، حيث أنّ أيّة مقاومة من طرفهم ستكون بلا فائدة، فإنّ إرادة فرنسـا كانت صارمة في تحقيق هدفها السّامي، ألا وهو احتلال الجزائر.

لقد خطر في بال الماريشـال فكرة جميلة ذات طابع إنسـاني بحت، وهي أن يطلب من عقلاء شـيوخ المسـلمين إصدار فتوى (نوع من الأمر الدّيني) يحثّون فيها مسـلمي الجزائـر على وقف المقاومة غير المجدية، والرّضوخ بطيب خاطر للهيمنة الفرنسـية، على أن نتعهّد باحترام مؤسسـاتهم الدّينية والقضائية.

ونجح مسيو ليون روش في مهمّته بشكل كامل.

تمكن من مقابلة الشّريف الأكبر في مكّة، وتمَّ توقيع وتصديق الفتوى التي كتبها مجلس علماء القيروان، من قبل مجلس علماء مكّة، والتي وافق عليها مسبقاً مجلس علماء القاهرة.

لقد أُنجزت المهمة، وبمسـاهمته الفعالة في إحلال السّلام في الجزائر، تمكّن سلفي الشّهير من إنقاذ العديد من الأرواح الفرنسية التي كانت لولا تدخّله ستهلك بلا فائدة.

كانت رحلته شديدة الاضطراب، وقد نجا بأعجوبة كبيرة.

ففي مكّة، تمكن بعض الجزائريين الذين قد سبق وحكم عليهم، عندما كان مترجماً للسّـلطات الفرنسية، من التّبليغ عنه في عرفات عند الدّقيقة الحاسمة للوضوء. فارتفع صراخ شـديد من الجماهير السّـاخطة، فأمسـكوا به وأخرسـوه وقيّـدوه على جمل ثم

أرسلوه بسرعة قصوى. ظنَّ نفسه قد ضاع؛ إلا أنه في الحقيقة قد نجا بحياته!

لقد أنقذ الشّريف الأكبر حياته، فقد أمر بحراسته ودون أن يعلم بذلك، فهو مبعوث الماريشال، وعليه أن يُبعد عنه أيّ خطر كان.

والآن، يتمتّع ليون روش براحة استحقّها كلّ الاستحقاق، وذلك بعد أن قضى حياة مهنية لامعة في خدمة فرنسا، فقد صار مرّة بعد مرة وزيراً مفوّضاً في اليابان ومرّاكش، حيث أدّى مهمات مهمّة هناك.

إنّه عجوزٌ صلب العود ونَضِر، عريض المنكبين، ما زال حتى الآن يبدو كشخص رياضي. ولقد حصلتُ على شرف مقابلته أثناء المؤتمر الذي أقمته في بوردو عن رحلتي.

اجتاحته عاطفة رقيقة ملأت عينيه بالدّموع، وهو يسمعني أتحدث بالتّفصيل عن رحلتي إلى المدينة المقدَّسة، فقال لي وهو يقبّلني: «لقد قمتُ بعد خمسة وسبعين عاماً بالقيام برحلة جديدة إلى هناك بصُحبتك».

سنوك هورخرونيه Snouck Hurgronge (هولندي)، مندوب الخدمة الصّحية في الهند الهولندية، قضى عدة سنوات في المدينة المقدَّسة.

لقد استقرّ هناك بشكل شبه كامل، واهتمّ بشكل خاص بوصف الأجناس، أو العروق البشرية.

على أننا ندين له بكثير من المعلومات الدّقيقة عن زماننا الحالي، بما أنه متواجد في مكّة منذ عام 1892.

ونذكر أيضاً من بين كل الأوروبيين الذين تمكنوا من الدّخول إلى المدينة المقدَّسة:

ڤالين[1] Wallin، فون مالتسان Von Maltzan، الدّكتور مورسلي Dr Morsly، والإسباني باديا Badia.

* * *

---

(1) حصلت على كتب رحلات كلّ من: غيؤرغ آوغُست ڤالين، وهاينريخ فون مالتسان، ودومينغو باديا (علي بك العبّاسي)، وسأقوم بإضافتها إن شاء الله إلى هذه السّلسلة.

«يعود أصل الحج إلى عصورٍ خلت. حتى إنه موجود قبل بناء مكّة بكثير، في القرن الخامس لعصرنا. تشكل مناسك الحج تكملةً للطّقوس القديمة التي لم يبادر محمّد إلى إلغائها، إلا أنه صيَّرها بشكل يوافق ديانته»[1].

يؤكّد العرب أنّ جميع الأنبياء قد حجّوا إلى مكّة، منذ إبراهيم الذي أنشأها وصولاً إلى المسيح ومروراً بإسحاق ويعقوب وموسى. وتأكيدهم هذا يظهر بشكل واضح فيما يخصّ موسى، وقد حدّثني الشّيخ عابد مفتي المذهب المالكي في مكّة، في يوم من الأيام عن حياة هذا النّبي، وهو يشرح لي معنى عبارة «التّضحية في الصّحراء»:

«أترى يا بنيّ، إن ما نتحدّث عنه هو التّضحية في مِنى، فإنّ فرعون لم يكن يسمح بالحج، فهرب اليهود من مصر واجتازوا البحر الأحمر بالمعجزة التي تعرفها جيداً. ساروا في الصّحراء وضحُّوا في مِنى ثم صعدوا من جديد باتجاه الشّمال إلى بلدهم برّيّة اليهوديّة Judée».

إن هذه الطّريقة الغريبة في شرح العهد القديم ليست موجودة في القرآن لا هي ولا حتى سَفَر المسيح المزعوم إلى مكّة، الذي سمعت عنه للمرة الأولى أثناء إقامتي في المدينة المكرَّمة. على كل حال هذه هي التّرجمة والتّأويل الإسلامي للعهد القديم:

«عندما أكل آدم وحوّاء من الفاكهة المحرَّمة، تمَّت معاقبتهما وإنزالهما إلى الأرض. فنزلت حوّاء على عرفات، وآدم على سرنديب (سيلان). ظلَّ آدم يبحث عن زوجته لمدة مئة عام، وفي النّهاية وجدها عند جبل عرفات (وهو جبل تعرَّف عليه). يقع هذا الجبل على بعد 30 كيلومتراً من شرق مكّة.

وعند مِنى، الواقعة بين عرفات والمدينة المقدَّسة، تحدّد الأقوال المتواترة مكان تضحية إبراهيم.

وفي مكّة، كادت هاجر وابنها إسماعيل يموتان من العطش، ثم أُنقذا بمعجزة عندما نزل جبريل وأمرها بحفر الأرض برجلها. فانبثق مباشرةً نبعُ ماء، غزير جداً لدرجة أنها

---

(1) «التوجه الجديد للسّياسة الصّحية» للبروفسور بروست.

كانت ستبتلع الهاربين. فنادت هاجر «زَمْ - زَمْ، زِمّي زِمّي» فسميت النّبعة المعجزة بهذا الاسم، وما زالت تسيل حتى أيامنا هذه.

وأخيراً، فإنّ أمنا حواء قد توفيت في جدَّة، وقبرها موجود على بعد مسافة قليلة من أسوار هذه المدينة، إلى جهة الشّرق».

إنّ هدف الحج هو أن تقوم بزيارة تقوى للأماكن المقدَّسة، كشكل من الإجلال الألفي vénération millénaire.

«في زمن العرب الوثنيين، كان الحج يأتي دائماً في فصل الخريف؛ لكن محمّداً بيَّن بوضوح الأشهر القمرية، وحدَّد موعد الاجتماع في الأشهر الثّلاثة الأخيرة. استنتج أنه في كل عام تقترب الأعياد ثلاثة عشر يوماً، وبالتّالي فإنه خلال ثلاثة وثلاثين عاماً، ستمرّ في كل الفصول على التّوالي.

«بالإضافة إلى ذلك، فإنّ قربان إبراهيم، أي العيد الكبير، سيأتي كل سبعة أعوام في يوم جمعة، وهو يوم مقدَّس لدى المسلمين. عندها سيكون الحشد ضخماً جداً.

«سابقاً، كنا نرى ملوكاً يأتون لأداء مناسك الحج. كالخليفة العباسي، الذي يصطحب معه 900 بغل فقط لتحميل متاعه. وقد حجَّ هارون الرّشيد ثماني مرات، وذهب محمّد علي إلى هناك عام 1814.

لقد جعل النّبي محمّد الحج فرضاً على المسلمين، فهو الرّكن الرّابع من أركان الإسلام الأساسية؛ وتشكّل الصّلاة والزّكاة وصوم رمضان، الثّلاثة الأخرى. مع العلم أنّ الحج ليس إجبارياً إلا على من يستطيع القيام به»[1].

إنّ الحجّاج، المرتدين لباس الإحرام، يذهبون قبل كل شيء للصّلاة عند قبر حوّاء في جدَّة، ثم ينطلقون باتجاه مكّة. منذ وصولهم، يدخلون إلى الجامع الكبير من باب السّلام، ويصلّون ركعتين عند مقام إبراهيم. إنّ الإحرام هو وشاحٌ يوضع بطريقة خاصة على الأكتاف. ثم يقوم الحجّاج بالطّواف سبع مرّات حول الكعبة، وهم

(1) «التوجه الجديد للسّياسة الصّحية» لبروست.

يردّدون الأدعية التي يُمليها عليهم المطوِّف جملة جملة؛ ثم في النّهاية، يقبّلون الحجر الأسود إن استطاعوا، وهو موجود على ارتفاع إنسان، داخل إطار من الفضّة، عند إحدى زوايا الكعبة.

ثم يخرجون من الجامع ليقوموا بمنسك السّعي، وهو إحياء لذكرى هاجر التي كادت تموت من العطش في وصط الصّحراء. ثم يعودون إلى الجامع، ليربقوا القليل من ماء زمزم، أو إن أرادوا يتوضؤون بشكل كامل من المياه العجيبة. ومن قام بالنّذر منذ البداية، سيُدعى إلى عُمرة على بعد بضعة كيلومترات من المدينة، لكن هذا الحج اختياري.

بما أن الحجّاج يصلون بشكل عام قبل الموعد المحدّد للحج، فبإمكانهم وقتها أن يرتاحوا بضعة أيام في المدينة المقدَّسة، وأن يهتموا بأمورهم من بيع وشراء، وأن يتاجروا كما يحلو لهم، لكن في اليوم المحدّد، الثّامن من ذي الحجة، ينطلقون بقوافل رسمية، ويكون المحمل على رأسهم، متجهين نحو جبل عرفات، مروراً بمِنى ومُزدلفة لكن دون أن يتوقفوا.

في عرفات ينصبون الخيام. يقول ليون روش Léon Roche: «إنه مشهدٌ مؤثر، وجود هذه الآلاف من الخيام، في ضوء القمر، وتحت وميض النّيران المشتعلة.

«نداءات الحجّاج الضّالين، الابتهالت الدّينية، الغناء الإيقاعي السّعيد المصاحب لضربات الأيدي والطّبول، الصّراخ غير المتناسق لبائعي القهوة، وبالإضافة إلى كل هذه الأصوات هناك الدّمدمة الحزينة لأكثر من 20,000 جمل، وصهيل الأحصنة، ونهيق الحمير، تؤلف كلها ضوضاء صاخبة».

إنه اليوم الأكثر حركة في كل الحج، يظهر خلاله المرح العام بصخب واضح؛ يطلقون عند المساء أسهماً نارية، ويدوي المدفَع على فترات منتظمة، وكلّ الجماهير تغني....

«ثم يأتي الصّباح. فتعلن مدفعيّات القوافل صلاة الصّبح.

«ينادي المؤذّنون من كل الجهات على الصّلاة، بأصواتهم النّديّة الرّنّانة.

«في حوالي السّاعة الثّالثة بعد الظّهر تبدأ الخطبة، وتستمرّ حتى مغيب الشّمس. كل أربع أو خمس دقائق يحرّك الواعظ علماً أخضر، كإشارة بالنّداء: «لبّيك اللهم لبّيك!» وعندما تغيب الشّمس وراء الأفق، ثم تختفي، تنطلق الحشود متسارعة وكل شخص يحاول الوصول قبل الآخر لأسفل الجبل.

«عندها لا يمكن وصف عدم النّظام، فهناك جرحى، وغالباً هناك جثث تغطي الأرض وتدهسها الأرجل. في الحقيقة على الجميع أن يمرّوا في منطقة محدّدة بين عمودين البعد بينهما حوالي ستة أمتار.

«وقتئذٍ يكون الابتلاع التّام، فالجميع يسرعون نحو ممرّ ضيق، رجالاً ونساءً وأطفالاً بمتاعهم وجمالهم. ففي عام 1892، دُهس هناك أكثر من 30 شخصاً.

«إن وصل الأول، وأطلق التّنهيدة الأخيرة الدّالة على وصوله إلى الهدف، فسيذهب مباشرة إلى الجنّة. وستستقبله حوريات الجنّة أحسن استقبال.

«واليوم التّالي هو يوم تقديم القرابين في وادي مِنى، تخليداً لذكرى نبيّ الله إبراهيم.

«يدير المضحُّون رأس الخرفان والثّيران والجمال، نحو الكعبة، ثم ينطقون بالشّهادتين.

«وقد تمّ في عام 1893 ذُبح أكثر من 120,000 خروف»[1].

مدّة الإقامة في مِنى بشكل نظامي ثلاثة أيام، لكنّ كثيراً من الحجّاج الآن يختصرونها هروباً من الرّوائح النّتنة الصّادرة من برك الدّم المتعفنة والأقذار المختلفة التي تغطّي أرض هذا الوادي الضّيق.

إنّ كثيراً من الاحتياطات تُتخذ اليوم لتخفيف أضرار هذه المذبحة المرعبة؛ هناك حفر محضّرة مسبقاً لدفن مخلّفات جثث الضّحايا مباشرة. لم يعد أحد يقطعها كما كانوا يفعلون منذ عامين.

(1) «التوجه الجديد للسّياسة الصّحية» لبروست.

رغم ذلك، هناك خطورة كبيرة على سلامة البلاد من الأمراض، وبإمكاننا أن نخشى أسوأ النّتائج لهذه العادة الكارثية؛ على أنّه يجب ألا نملّ من الاعتراف، وذلك لأهداف مهمّة نوعاً ما، أننا بالغنا كثيراً في تعظيم الحوادث، فقد ثبت اليوم وبشكل قطعي أنّ الكوليرا لا تنشأ في مِنى.

الكوليرا يجلبها الحجّاج القادمون من الهند، حيث أنّ الكوليرا مستوطنة في هذا البلد، وهي تتطوّر وتنتشر عند الأشخاص الضّعفاء الذين يعانون من أشد أنواع التّقشف والحرمان، والخاضعين لمشقّات مفرطة وتحت ظروف صحّية مؤسفة، لكن الآن بعد الاحتياطات الحكيمة بإزالة الجثث مباشرة، من المستحيل القول، وأكرّر ذلك، أنّ الكوليرا تنشأ في مِنى.

أمّا عن الرّوايات التي تقول إن الحجّاج يأكلون بنهمٍ لحم الأضحية الفاسد، فهي روايات غير مقبولة ولا أساس لها من الصّحة.

حتى إنهم ذهبوا للقول، في هذه الرّوايات، إنّ بعض الأشخاص الجوعى يعودون وينبشون الجثث بعد عدة أيام من طمرها تحت التّراب. وهذا مثيرٌ للضّحك!

لكن هذا ما يحصل؛ يبدو أنّه بسرد هذه الرّوايات يسهّلون على الإنكليز لعبتهم، فهؤلاء مهتمّون بنشر هذه الأفكار المغرضة، ويصرُّون على عدم تطبيق أقلّ الاحتياطات وإن كانت بدائية، والتي تقتضي عليهم تطبيق مراقبة شديدة على الحالة الصّحية لحجّاج الهند القادمين عن طريق البحر، أو عن طريق القوافل الآتية من اليَمَن.... لكن....

لكن بذلك ستتأثر تجارة الأرز والقطنيات والحرير، فيفضّل الإنكليز أن يتركوا لنا الاهتمام بالأمور الصّحية، والانشغال بمسألة أضحيات مِنى المتكرّرة....

إن لم نأخذ حذرنا، سيأتي اليوم الذي نُفاجأ فيه بأمور غير سارّة، ستفتح أعيننا على تصرفات جيراننا الطّموحين أصحاب المكائد، لكن للأسف سيكون الآوان قد فات....

لكن لنعد إلى حجّاجنا، فبمجرد فراغهم من التّضحية، يستعجلون عموماً في

العـودة إلى مكّـة، وبمرورهم عند عين زبيدة *Zobeïda*، يأخذون حمّاماً سـريعاً هناك، وهي حوض مستطيل الشّكل، يقوم الإنسان بتعبئته بنفسه.

هذا الحوض محفور في أرض وادٍ ضيق (وليس في سـهل ضخم كما يظهره بعض الرّسـامين الخياليـين فـي بعـض المجـلات المصـورة، إذ يعجبهم أكثر تصويـره بهذا الشّـكل)، حتى إنه موجود على طرف الطّريق، على مسـافة قريبة من ماسورة الماء التي توصل مياه الشُّرب إلى مكّة.

ومن هذه الماسورة بالتّحديد، يتمّ غرف الماء الذي يُعبأ به الحوض.

وهـذه عـادة أخرى تشـكّل خطـورة على صحّـة الحجّاج، حتـى إنهـا بالتّأكيد أكثر خطـورة من روائح مِنى النّـتـنة، كمـا إنه يمكن إلغاؤها بسـهولة، وذلك بترك الحوض خالياً من الماء دون قيد أو شرط....

ثم بعد عودتهم إلى مكّة، يتعجّل غالبية الحجّاج بشـكل عام في الذّهاب إلى جدَّة، حيث تكون البواخر مستعدة للانطلاق إلى ينبُع والمدينة.

وبهـذه المرحلـة يكـون الحجّ إلـى مكّة قـد انتهى. ومـن الممكـن أن ينضمّ بعض المؤمنين إلى القوافل الرّسمية للمحمل المصري والشّامي، كي يحجّوا إلى المدينة.

هذا الحج اختياري، لكنه محمود. وفي الواقع فإنّ الغالبية تقوم به....

* * *

إنّ لولاية الحجاز والتي عاصمتها مكّة، سلطتين: إحداهما سلطة الوالي الذي يمثل السّـلطان، وهـو الذي يعتمد القناصل؛ والثّانية سـلطة الشّـريف الأكبـر والذي ليـس له علاقة مباشـرة مع أيّ قنصل؛ ويطيعه البدو، مع كونهم خاضعين بشـكل رسـمي لسـلطة الوالي. والشّريف الأكبر، شيخ مكّة، هو الأقوى والأكثر احتراماً من بقية الشّيوخ؛ ويتمّ اختياره دائماً، منذ اثني عشـر قرناً، على أن يكون منحدراً من آل بيت النّبي محمّد ﷺ.

إنّ الوضـع السّياسي في الحجاز مختلف كلّياً عن بقية الدّول الواقعة تحت الاحتلال

التّركي. إنّ أهل الحجاز ليسوا ملزمين بالخدمة العسكرية، ولا يدفعون الضّرائب؛ بل على العكس يتلقّون إعانات من الذّهب والفضّة من السّلطان ومن الخديوي المصري.

يوجد تحت تصرُّف الشّريف مبالغُ كبيرة من المال؛ يمكننا القول إنه يتلقى 40,000 فرنك شهرياً من الباب العالي؛ ولديه حرّاس شخصيون يلقّبون les *Bichaz*، وهم من البدو الذين كانوا ينهبون قوافل الحجّاج والتّجار. ضمَّهم الشّريف الأكبر إلى جماعته، ونسّقهم بين الطّائف ومكّة.

ولديه ممثّل عند السّلطان، وآخر في مصر.

إنّه لا يغادر مكّة سوى للاصطياف في الطّائف. وهو محترم جداً، وخاصة من قبل الحجّاج الذين يأتون كل عام إلى مكّة، قادمين من وسط الصّين حتى أقصى المغرب؛ فهم يعتبرونه من آل البيت، ويرون فيه الزّعيم الدّيني، وهذا ليس صحيحاً، حيث أن الزّعيم الدّيني هو أمير المؤمنين (السّلطان) ويليه شيخ الإسلام المفوَّض بالسّلطة. ويعرف الولاة جيداً منذ وصولهم، أنهم لا يستطيعون مقاومة هكذا قوة جبارة كقوة الشّريف الأكبر. لكن في حال كون الوالي رجلاً قوياً جداً بسبب نفوذه عند السّلطان وقيمته الشّخصية، كعثمان باشا، عندها يصبح الشّريف الأكبر إن كان بالإمكان قول ذلك، خادمه التّابع؛ وهذا ما هو عليه الشّريف الأكبر الحالي، حيث أنه يعلم جيداً أنّ عثمان باشا لن يبقى مطولاً في مكّة، وأنّه بمجرد سفره سيسترجع سلطته التي حُجبت عنه لفترة مؤقتة.

إنّ الشّريف الأكبر الحالي هو سيّدنا عَوْن الرَّفيق[1] Sidna Aoun er Rafik.

باختصار، إن الوضع السّياسي في الحجاز بعيدٌ كلّ البعد عن كونه لامعاً لا من النّاحية التّنظيمية ولا من النّاحية العملية. لكن يجب أن نأخذ بالاعتبار المصاعب

---

(1) «الشريف عون الرّفيق باشا ابن محمد بن عبد المعين بنو عون (1841-1905)، أمير الحجاز نحو 25 سنة، من سنة 1299-1323 هـ. كان داهية بني حسن في عهده، حازماً عاقلاً، وطّد الأمن إلى درجة لم يسبق مثلها في الحجاز، وساعده على ذلك أفول نجم الدّولة السعودية الثانية في نجد، وانصراف جميع جيرانه لمعالجة شؤونهم الخاصة.

الجمّة التي ينبغي التّصدّي لها، والمشاكل العديدة والمعقدة التي يجب حلّها، فسيكون من الصّعب جداً إيجاد حلّ للوضع الرّاهن.

إنّ إنشاء سكة حديدية بين جدّة ومكّة سيغيّر كثيراً من هذا الوضع. هناك الكثير من الأقاويل حول هذا الموضوع، ومن المحتمل أن ينفّذ هذا المشروع في يوم من الأيام، لكن العقول النّيرة للعالم الإسلامي ستعارضه بشدة ولفترة طويلة؛ فبالنسبة لهم سيتمّ بذلك القضاء على فلسفة الحج حتى أنها ستُدمَّر. حيث أنه ستلغى حالة الإذلال الجماعي التي تظهر من خلال لباس الحجّ البدائي، كما أنه لن يعود هناك مشقات جماعية يتكبّدها الأغنياء والفقراء، الذين تعادلوا للحظة من اللحظات في مُساواة حقيقية.

لقد أراد النّبي أن يجتمع الجميع، كباراً وصغاراً، أقوياء وضعفاء، عبيداً وملوكاً، عراةً جبينهم على الأرض ومعترفين بمساواتهم أمام الله.

إنّ القطار[1] سيزيل من هذا المشهد الإيماني الرّائع ومن هذه الأخوّة الإنسانية كلّ قيمه المعنوية، وكلّ سحره، وسيحوّله إلى عادة تشبه التّطيّر المبتذل.

تمّت بعون الله

* * *

(1) يتكلّم عن الخط الحديدي الحجازي الذي كان العمل جارياً لإقامته ما بين دمشق والمدينة المنوّرة، بطول 1320 كم، وتمّ إنشاؤه بين عامي 1900-1908 لكنه لم يعمل سوى ثماني سنوات عندما قام الإنكليز بقيادة لورنس بتخريبه عام 1916. وهنا نتذكّر رحلة المغامرة الألمانيّة دوروتيا فون لينكِه (الكونتيسة مالمياتي) من دمشق إلى المدينة المنوّرة في عام 1914 قبل الحرب العالميّة الأولى، ثم عودتها إلى دمشق بهذا القطار ذاته. ولقد نشرنا وقائع هذه الرّحلة الشّائقة في سلسلتنا بعنوان: «رحلة إلى المدينة المنوّرة عبر قلب البادية».

محتويات الكتاب

* * *